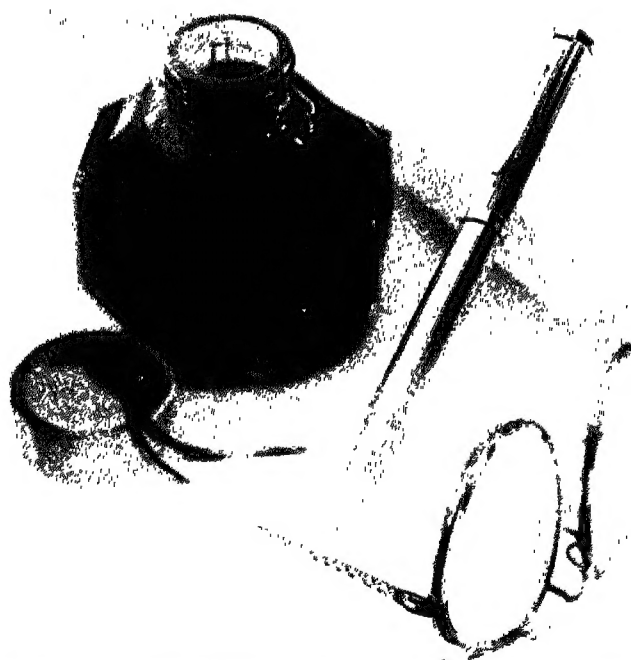


الرحى والردى

الكاتب السوداني
كمال يوسف



08

الرحى والردى

كمال يوسف جميل



دار الأحمدي للنشر

دار الأحمدي للنشر

القاهرة : ١٥ ش عبد الخالق ثروت

تليفاكس : ٥٧٧٠٦٢٥ / ٠٢

المنيا : ٧٨ ش طه حسين

تليفاكس : ٣٤٧٨٠٢ / ٠٨٦

الرحى والردى

تأليف : كمال يوسف جميل

التنفيذ الفني : الأحمدي جروب

الطبعة الأولى : يناير ٢٠٠١

رقم الإيداع : ١٢٦٦٥ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولي : 8-34-5887-377

تصميم الغلاف : كامل جرافيك - القاهرة

الإهداء

إلى كل من ينشد العدل .. والفضيلة .. والجمال ..

كمال يوسف جميل

مقدمة

من رحي الحياة الدائرة وما بين قطبيها من متباينات ومتناقضات ..
ومن أقصى يمين السعادة المترفة وحتى أقصى شمال الشقاء
والتعاسة ..

ومن برائن الردى وقبضته الدامية الموجعة وما يخلفه من حسرات
وأسى وعظات وعبر ..

ولتجاوز حضيض الواقع المرير للحاق بمراكب الطموحات الفارة ..
هذا صوت خافت بالدعاء والثناء على المفكرين ، حداة الركب ،
وأن ليس لنا مخرج مما نحن فيه إلا بعون الله وجهدهم ، وأن لهم
قيادة مسيرة المجتمع لما فيه صلاحه .

وإذا كان جهاد النفس هو الجهاد الأكبر عند فئات المجتمع الأخرى،
فإنه يضاف إليه جهاد الفكر عند هذا النفر الذين اختصهم ربهم بقدرات
ومواهب لإنجاز مهام القيادة والريادة .. وهى مهام جد عسيرة .. من
أهمها تجاوز تناقض الموروثات الشعبية عن الدين مع كل من الواقع
والتطور ، وحقائق الدين نفسه ، وصولاً لتصالح مع دين الله الحق
ودعوته الملزمة للتقدم الإنساني المطرد ، ولتحقيق معدلات سعادة
مرتفعة لأكبر عدد من الأفراد .

عرضت بعض ما جاء في هذا الكتاب على بعض المهتمين من
شيوخ وأكاديميين : قال د . الحبر يوسف نور الدائم بأهمية العمل
وبذل الجهود لإكماله بإنجلترا .. وتبينت لي مصداقيته ، مثله د .
حسن حسين - جامعة الجزيرة - الذي اقترح تكوين لجنة مصغرة
والعمل في سرية ، أما د . حسن مكي فقال بنشره ومناقشته على
نطاق واسع تحت إشراف لجنة منه وأمين حسن عمر والمحبوب عبد
السلام .. واعترض الأخير على النشر ، وسلم د . أحمد على أمام
ملزمته المصورة لأحد كبار الشيوخ بجامعة القرآن الكريم ، حيث

سارع الشيخ بتكفيرى .. لكنه تراجع بعد جدال مرير ، وهذا تقييم
معظم الشيوخ .. على عكس الأكاديميين الذين قال بعضهم إن هذا
العمل قد يشكل الأساس لقيام دولة إسلامية حديثة .
وفر بعض المعلومات عن الطفل وساعد في إخراج هذا الكتاب فنيا
الأخ / على محمود جميل فله الشكر .. ولكل من شارك ماديا أو
معنويا .

كمال يوسف

القاهرة ٥ / ١٠ / ٢٠٠٠ م

الباب الأول

شرقستان وغربستان

تأسيس

تتعدد الأهداف الحياتية للأفراد والجماعات ، كل باختلاف وعيه وفكره ومتطلباته ، إلا أنه يفترض إن تكون السعادة هي هدف استراتيجي لكل الأفراد . ولعله من المفيد هنا أن نؤكد أن الهدف الاستراتيجي يتطلب جهدا جادا وإدراكا منظما .. وتضافر عوامل عديدة لتحقيق السعادة للفرد ..

وهنا يبرز السؤال المهم عن ماهية السعادة :

أهي الشعور بالرضى والإشباع ، السرور والضحك ؟

أم أنها ثمار السعادة ومؤشراتها الدلالية ؟

وبما أنها مطلب واحتياج إنساني عام ، فإننا نجد لها الكثير من المفاهيم الحقيقية والمجتمعة على مستوى الفكر والتخاطب الاجتماعي اليومي السائد .

فأما على مستوى الفرد فإنه دائما ما يربط سعادته بشخص معين أو شئ حسي معلوم يكون هو مصدر إسعاده ، ويكون أكثر صدقا إذا أعلن أن شقاه مرتبط أيضا بنفس المصدر . والشواهد الشعبية على ذلك كثيرة ، والتصالح الاجتماعي في ذلك عميق وله جذوره الضاربة في تراثنا وثقافتنا ..

ولعل المقطع التالي خير دليل لما ذهبنا إليه :

في سبيل نظرة من عيونك

أحتمل كل ما ألقى ..

كيف تكون السعادة دونك ؟

والشواهد في ذلك كثيرة في الأدب العربي والعالمي . ولكون الصحة والحالة المادية ، الاجتماعية ، العقلية والفكرية من أهم العوامل المحددة للسعادة والتي تؤثر في مدى سعادة أو شقاء الفرد تأثيرا مباشرا . وللاختصار والتيسير نضع نسبة افتراضية متساوية

لكل عامل من تلك العوامل هي ٢٥ % ، ويكون المجموع الكلى مساويا ١٠٠ % . ونضع عاملا حديا حاسما كحد أدنى لكل عامل بحيث لا يقل عن ٥ % ، بمعنى أنه بعد تحقيق الحد الأدنى ٥ % مثلا لكل العوامل يمكن أن نجرى عملية جمع تراكمي لحساب معدل السعادة .

ولمزيد من التوضيح مثلا :

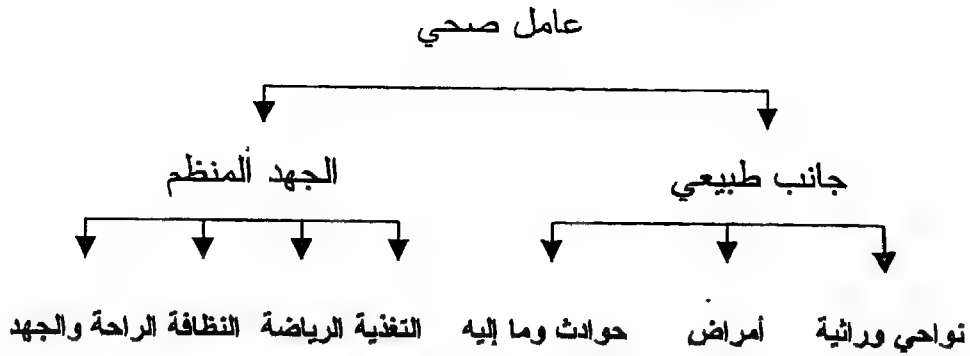
إذا كان العامل الحدى يقل عن نسبة ٥ % ، فهناك مشاكل يعاني منها الفرد تكون حاسمة في تأثيرها على العوامل الأخرى . مثلا إذا كان العامل الصحي بنسبة ٤ % بمعنى أنه أقل من العامل الحدى فإننا نستنتج عدم أهمية وجدوى العوامل لأخرى ، وعليه تكون سعادة الفرد بنسبة ٤ % بصرف النظر عن إيجابية العوامل الأخرى .

السعادة والجهد الجاد المدرك المنظم

تخضع جميع العوامل المؤثرة في مدى سعادة الفرد لجانبين يحددان مدى تأثير وفاعلية العامل وهما :

- أ - جانب طبيعي
 - ب - جانب الجهد المنظم
- ولمزيد من التوضيح نقوم بإسقاط هذه الجوانب على العوامل المختلفة لنرى مدى تأثيرهما على كل عامل على حدة ، وبالمحصلة النهائية مدى تحديدهما لسعادة الفرد :

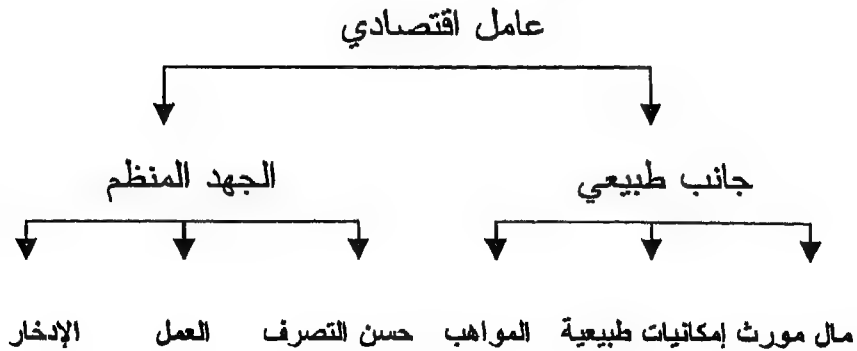
١ - العامل الصحي



مخطط رقم (١-١)

بنظره سريعة ندرك أن الجانب الطبيعي قد يضعف المجهود الإنساني المنظم في بعض الأحيان ومع ذلك يبقى للجهد يبقى الجهد المنظم فعاليته في رفع مستوى مساهمة هذا العامل الفرد .

٢ - العامل الاقتصادي



يختلف الأفراد عامة في تقييم وتحديد أهمية الوضع الاقتصادي في حياتهم ، في حين يرى البعض أنه فقط ضرورة لتوفير المتطلبات الحياتية وليس غاية في ذاته . ويراه آخرون قيمة أساسية في حياتهم تتحدد به مكانتهم الاجتماعية وتتناسب طردا بما يمتلكون . وهنا أيضا يتضح لنا أن الجانب الطبيعي والجهد المنظم في تفاعلهما يحددان وضع الفرد الاقتصادي ، وبالتالي التأثير المباشر على مدى سعادته .

٣- العامل الاجتماعي

يمكننا تصنيف العلاقات الاجتماعية كالتالي :

أ- علاقات اجتماعية إجبارية : وهى علاقات وراثية دائمة .. كالأسرة والعائلة .

ب- علاقات اجتماعية اختيارية : أهمها علاقات الصداقة ، وهى علاقات مبنية على التفاهم والانسجام ، ولعل 'اشتقاقها من كلمة " صدق " يحمل مدلولات عديدة على ماهية هذه العلاقة .

ج- العلاقة الزوجية : ولها عوامل هامة وعديدة تتفاعل لتقرر نجاحها وإستمراريتها . ومن هذه العوامل : العوامل العاطفية ، الجنسية ، المادية ، الأخلاقية ، الروحية والفكرية ... وهى من أكثر العلاقات تعقيدا لكثرة القوى الرابطة لها والدوافع المؤثرة فيها في كل مرحلة من مراحلها :

١- الاختيار : يفترض أن يكون حرا لكلا الطرفين .

٢- الزواج : بداية الرباط المقدس وتنعكس فيه عقائد المجتمع الدينية وأحكامه القانونية وأعرافه وتقاليده ومستواه على السلم الحضاري .

٣- الأبناء : الجيل الجديد .

ولعنا نتبع جانب الصواب والمفهوم العام إذ أكدنا أنها أهم العلاقات الإنسانية قاطبة .. تبدأ اختيارية وتنتهي كأقوى ما يكون الإلزام ،

وذلك بنظره مجتمعة ثابتة وإدراك للواقع الحياتي ، ولهذا يكون لها أعظم الأثر في سعادة الفرد . ومن الطبيعي أن النجاح فيها يزيد من مستوى السعادة المنشودة للفرد ، والعكس صحيح بالطبع .

٤ - العامل العقلي - الفكري :

حتى يكون طرحنا موجزا فإننا نهتم بما نسميه عقل ، وما يتبعه من فكر ، كعامل فاعل في مستوى سعادة الإنسان بعيدا عن التطرق للتخصصات الفنية في ماهية الذكاء والذاكرة وما إليه . ولنر تأثير الفكر الشخصي على مستوى السعادة - حيث أن الفكر أو أسلوب الفرد في الحياة هو محصلة لمستوى ذكائه الطبيعي .. إضافة للبيئة ، الأسرة ، الثقافة ، التعليم ... الخ . ونشير إلى دور العقل في برمجة العوامل السابقة والتحكم الفعلي فيها وبالتالي أهميته القصوى في إدراك ماهية السعادة وتحقيق مستوى مرتفع منها .. إضافة للمساهمة العقلية المباشرة . وبالتالي يتعين علينا بذل الجهد المنظم لتحصيل الثقافة والوعي والإدراك لتحقيق أكبر معدل منها .

قد أخسر الدنيا نعم
قد أخسر الكلمات والذكرى
لكنى أقول الآن ... لا
يا آخر الطلقات ... لا
يا ما تبقى من هواء الأرض ... لا
يا ما تبقى من حطام الروح ... لا

" محمود درويش "

الفصل الأول

القاهرة

رغم هذا المدى المفتوح والتمثل في مليون ميل مربع ، ضاقت سبل الحياة واطمحت جميع العوامل الحاسمة والمؤثرة في سعادة الفرد ، وانخفضت عن نسبة عاملها الحدي . مما يدل على أننا نعيش في جو من الشقاء القاتل . ولعل هذا هو قدرنا نحن أهل السودان ، ندفع ضريبة الأخطاء العديدة الموروثة منذ القدم ، والممتدة في سمائنا حتى الآن .

تحت وطأة المشاكل العديدة عانيت حد الارتواء ... يئست حد الغثيان ، غير أنني حاولت الصمود وكافحت من أجله أعواما عديدة . أخيرا صدر القرار : " ليس من مخرج غير الهجرة " .

القاهرة .. القاهرة - المعز .. التي كانت تأوينا ونحن طلبة في جامعة بنغازي كلما زادت الخلافات وتوترت الأجواء بين معمر القذافي وجعفر نميري .. تحمينا من وعثاء الزمن وتقلبات السياسة ، لعل حبنا لها له الكثير من الإمدادات الطبيعية والمواقف التاريخية . القاهرة .. القلب النابض بهوم الأمة العربية والإسلامية ، مازالت تقوم بدورها الطبيعي في خدمة الأمة ، ولم تبخل باحتوائنا نحن فقط .. بل حتى الطغاة المشردين تبقى هي ملجأهم الأخير . إنها دائما تقف كالأم الرؤوم .. باسطة ذراعيها لأبنائها ، البر منهم والفاقر .

طريقي إلى القاهرة لم يكن ممهدا تماما .. لجأت للأصدقاء الذين لم ييخلوا علي بالمساعدة وقدموا لي كل العون .. معلومات ، تسهيل إجراءات ، دعم معنوي .. ولسان حالهم بعد أماني التوفيق : " وإن أبتك دار .. قلله ديار ، وإن أبتك قريش .. قلله أنصار " . سناقرت وزادي كتاب تايبى TYPEE ، كتاب مغامرات لهرمان ملفل ، وإن لم يكن مقصودا في ذاته ، لكنه كان مناسبا .

أخيرا وبعد معاناة قاسية وصلت القاهرة ، عكس زيارتي الأولى السعيدة في فبراير ١٩٧٥ حيث أقمت ببيت الشباب بالمنيل . في تلك الفترة كانت حركة سفر السودانيين محدودة للغاية داخليا وخارجيا .. نسبة لحالة الاكتفاء الذاتي التي كانت سائدة في ذلك الزمان . ليس هذا فقط ، لكن حتى عملية الاختلاط والتعامل مع " الآخر " الخارجي كانت في حيز ضيق ، وقد يكون السبب في ذلك التعدد الإثني والعرقى للسودان .. إضافة لثقافة المواطن السوداني والأوضاع الاقتصادية . هذه العوامل هي التي تجعل المواطن السوداني مكتفيا اجتماعيا داخل امتداد الوطن الواحد . وكانت الوصية التقليدية لكل المسافرين لمصر - وهي القبلة التاريخية لهم : " أعمل حسابك من ... " . ومن المفيد التأكيد أن السوداني في حينها كان يحتاج فعليا للوصية لإدراك كيفية التعامل مع الغير .

عادة ما نبدأ الرحلة بالقطار .. حيث يتم التعارف بين المسافرين ، وبسبب طباع السودانيين وتوددهم وتكاتفهم ، تجدهم يتجمعون في وحدات متجانسة ، ليس بالعرق أو الانتماء الطبقي فقط ، لكن وأهم من ذلك للألفة والتعاطف الذي كان سائدا في تلك الفترة . ولأسباب موضوعية أجد نفسي في كل رحلاتي أميل لأبناء غرب السودان الذين لهم محبة كبيرة عندي ، ولي العديد من التعاملات والصدقات معهم . وامتدادا لتعارف القطار والباخرة - وكعادة السودانيين - وبعد إصرار قضيت ليلة أو ليلتين في ضيافة أسرة كريمة ، بعدها رافقني أحد أفرادها الى حيث إقامتي ببيت الشباب بالمنيل ، وبعد إتمام الإجراءات قفلت راجعا مع مرافقي .

صديق مصري

في المساء ودعت الأصدقاء متيمنا بيت الشباب لقضاء أول ليلة بعيدا عن أهلي ، واستقبلت باصا متوجها لشارع الهرم . وبما أنها

المرّة الثّانية لي للذهاب لببيت الشباب ، خشيت ألا أعرف محطة النزول خصوصا في ظلام الليل فكان لابد من السؤال . كنت في أواسط الباص ، معظم الكراسي شاغرة ، وأمامي مجموعة من أربعة أو خمسة شباب مصريين اصطفوا على جانبي الممر . كان باينا أن روح الألفة أو الزمالة تجمعهم . وجدتني مضطرا للسؤال عن المحطة . قبل الوصول بمسافة كافية وبغير مقدمات أو تحية سألت مباشرة ، كنت أتوقع الإجابة باختصار وعلى قدر السؤال إلا أن الرد جاء على غير المتوقع من أحدهم :

- الأخ سوداني ؟

- نعم

- أهلا وسهلا بك

- الله يبارك فيك .. " وجدت نفسي مكرها على المجاملة " .

- الوطن الإسلامي دولة واحدة وقديما لم يكن هذه الحواجز المصطنعة موجودة وستزول بإذن الله .

سألت نفسي : ماذا يريد هؤلاء المحتالون ؟ إن كل ما أريده هو معرفة محطة النزول ، وهم يريدون إقحامي في هذه المواضع .. ليس خوفا من الحديث في السياسة ، إذ أننا نعتقد أن دولة العلم والإيمان التي يتزعمها السادات وفرت الكثير من الحريات ، لكن خوفا وحفاظا على نفسي من الاحتياال والنصب وما إليه .

واصل حديثه هاشا باشا :

- اسمي خالد أحمد شوقي .

- أحمد شوقي ؟ " جال برأسي الشاعر أحمد شوقي وهممت بالسؤال عن ذلك ، لكن سريعا أدركت أنه لا يمكن أن يكون أبنا للشاعر " . أما هم فلا أحسب أن لديهم أحمد شوقي آخر أهم من رفيقهم .. وهنا تدخل أحدهم :

- يمكن أن تتاديه الاستامبولي " هكذا وقعت بسمعي " .

تذكرت أحمد شوقي شاعرنا العظيم ، استامبول المدينة التركية ،
جال برأسى شعر الشاعر :

" ياخالد الترك جدد خالد العرب "

هنا زال عني الاحتياط والحذر ، إذ أدركت أن هؤلاء الشباب لا
يمكن أن يكونوا محتالين . وكما يقول أهلنا : الطبع يغلب التطبع .
فمضيت معهم إلى الأمام سائلا :

- أنت خالد التركي أم خالد العربي ؟
- ليه ؟

- انتسابك لإستامبول

- لا أنا عربي ، وكنية إسلامبولى هي من الإسلام ، أما المدينة
إستانبول فبالنون وليست بالميم .

هكذا عدت لطبيعتي ولشيم أهل السودان وتم التعارف بيننا جميعا
.. إلا أن التركيز كان على خالد ، كان وقتها في السنة الثانية بالكلية
الحربية على ما أذكر ، ولعل مضى السنين لم يذهب عني الحقائق
ويوقعني في الخطأ . المهم قدم لي الدعوة لزيارته بمنزل شقيقته في
اليوم التالي ، واستكرت بعد أن أخذت العنوان :

- شارع الهرم ؟

- نعم

- أليس هو مكان الفساد ؟ ما كنا نظن أن به منازل سكنية عادية .

توقف برهة ، ثم جاء رده متأثرا :

- معظم السكان شرفاء . وأضاف : أما هذه المفاصد فهي سبة في

وجه مصر الإسلام ويجب أن تتغير ، كل ذلك سيتغير بإذن الله .

صمت فترة ثم عاد لموضوعه :

- أعطيك العنوان لتأتى لزيارتي غدا

- لكنى لا أستطيع الوصول

- حسنا ما زال الوقت مبكرا . يمكنك أن تواصل معنا لترى المنزل ثم تأتي غدا .
- فليكن كذلك .

في المساء المائل للبرودة ، الخميس من أواخر فبراير ، ذهبت إلى منزل شقيقته ، على يمين شارع الهرم وعلى يسار طريق فرعى جميل تحفه أشجار متوسطة على جانبيه . بعدها أصر على العودة معي لبيت الشباب ليطمئن على وصولي ليلا . واتفقنا على تناول الإفطار سويا في اليوم التالي ببيت الشباب . ويقيني أن بحياتنا أشياء عديدة تحدث لنا بشكل غير مسبق ، كأقدارنا في الحياة ، وأن الزمن وحده لا يحدد العلاقات الاجتماعية والصلوات والمشاعر الإنسانية ، ثمة عوامل أكثر إيجابية وإنسانية في ذلك تحركنا عبر مسيرتنا الحياتية . عوامل أكثر فاعلية لتحديد أثر علاقتنا وسلوكياتنا تجاه الآخرين .

في صباح الجمعة التقيت خالد مجددا - لم نفترق كثيرا منذ لقائنا - تناولنا إفطارنا ببيت الشباب - كعادتهم - " جنبه ومربي " على عجل فلدينا الكثير لنقله . ولعل القليلين من أفراد المجتمع الإنساني يتسمون بالآلفة والمودة والمحبة والاحترام المتبادل ، إذ أنها مواصفات بشرية عالية الجودة والنقاء ولا تحتاج للتعريف عنها ، حيث أنك تدركها بسهولة فيمن تعامل .

بعدها ذهبنا إلى منزل شقيقته . كان جل النقاش والحوارات عن الدين والسياسة مع تركيز على الراحل السادات . حيث أننا اختلفنا كثيرا في تقييم الرجل ، ففي حين كنت شديد الإعجاب والرضى عنه كان خالد على النقيض ، ساخطا عليه . واذكر قوله :

- إن السادات يتحدث عن دولة العلم والإيمان ولكنه ينافق ولم يفعل أي شيء لتحقيق ذلك فالعبرة بالعمل لا بالقول .
وأذكر اجابتي :

- حرب ٧٣ هي خطوة جبارة وانتصار للأمة العربية والإسلامية ،
إتاحة قدر من الحريات التي كانت معدومة هو خطوة إيجابية للأمام ،
كما أن مجرد الحديث عن دولة العلم والإيمان هو خطوة إيجابية .
بشكل عام التطور السياسي الذي حدث من النظام الملكي إلى نظام
عبد الناصر وصولاً للسادات ، هو تطور للدولة والمجتمع يؤكد أننا
نسير بخطى حثيثة نحو الأفضل .

كان معيار صاحبي في الحكم ومبتغاه الوحيد هو إعلان الدولة
الإسلامية .

عند الوداع الأخير ، مغادرا لليونان بغرض الدراسة ، تعاهدنا
وأيادينا متشابكة - كالصراع أو الضغط لتحديد الأقوى والأكثر
احتمالا - على أن يبذل كل منا أقصى ما يمكنه لخدمة دينه وأمتيه ،
كل في مجاله ، أنا في مجالي الأكاديمي وهو كعسكري . وبالرغم من
كونه صاحب هذا التعاقد والالتزام - وللأمانة - فإنه لم يذكر أي شيء
عن تنظيم أو عمل مشترك أو ما إلى ذلك ، حتى أن عنوانه للمراسلة
كان خارج إطار عمله ومهنته .

بعد قرابة الشهر من سفري قفلت راجعا من اليونان لقسوة الحياة
الطلابية بها . ذهبت للسؤال عنه بمنزل شقيقته إلا أن المنزل كان
خاليا . سألتني جارتهم في السكنى - بالتحديد الطابق الثاني للجهة
المقابلة - عم أريد فأجبت :

- اسأل عن ناس فلانة

- من أين تعرفهم ؟

- أنا صديق شقيقها خالد

استكرت المرأة الزيارة والصدقة ، وبعد استجواب انصرفت
بدون إرشادي أو إفادتي بأي معلومة . ولعل هذه المرأة تمثل
الحقيقة والواقع ، أما خالد فكان غريبا بين أهله .

لعلنا نعيش في زمن غير الزمن .. حيث اللامكان واللامعقول

الفصل الثاني

السياسة والتعليم الجامعي

بعد نتيجة امتحانات الشهادة السودانية ١٩٧٤ ، كنت قد قبلت بالمنحة الدراسية المقدمة من الاتحاد السوفيتي عن طريق مكتب العلاقات الثقافية . ومن المعروف أنه يتم القبول بعد ترشيحات وتصفيات أكاديمية عسيرة بين الطلاب ، على أن ترفع الأسماء لاعتمادها من قبل الاتحاد الاشتراكي في ذلك الوقت . ولدهشتي وجدت اسمي مرفوعا من القائمة النهائية .. ولأسباب سياسية ، علما بأنني لم انتظم - وحتى الآن - في حزب سياسي قط ، اللهم إلا الاهتمام بالمصالح العامة . وكنا نحسب أنه لا رابط بين مواقفنا السياسية وحياتنا الأكاديمية ، لكنها على ما يبدو سنة الأنظمة الشمولية في كل مكان . وكان من الطبيعي أن نبحث عن فرصة للدراسة بطريقتنا الخاصة ، لانتفاء إمكانية الحصول عليها من خلال العلاقات الثقافية ، فقمنا بإرسال الشهادات إلى أحد الأقارب بليبيا والذي بدوره سلمها لقادة المعارضة السودانية هناك ، والتي كانت موجودة بدعم من القيادة الليبية .

وندين بالشكر والعرفان لكل من المرحوم بابكر كرار - مؤسس الحزب الاشتراكي الإسلامي - وهو مفكر وشخصية متميزة . وزميلي كفاحه الأستاذ عبد الله زكريا - مسئول اللجان الثورية للسودانيين . وتم قبولي بكلية الاقتصاد بجامعة بنغازي .

السياسة والإرهاب

في نهاية عامي الأول بجامعة بنغازي حدث ما يسمى بغزو المرتزقة للسودان ٢ يوليو ١٩٧٦ ، وفقدنا فيه اثنين من خيرة الزملاء كانا قد تطوعا ضمن المتطوعين وبتكتم شديد منهم . وللتمويه أخبرنا

أحدهم أنهم سيقومون بزيارة مريض بطرابلس ، بعدها علمنا باستشهادهما . الأحداث تمت سريعة ، وتوترت الأوضاع بالسودان خصوصا للعائدين من ليبيا ، وبذلك استحالت عودتنا في هذا الجو المشحون بالأحقاد . عولنا على قضاء الاجازة الصيفية بالقاهرة وهى كعادتنا ملجأنا حين تضيق بنا سبل الحياة .

في طريقي لدار عرض سينمائي تعرض الفيلم الشهير " وداعا أيها الصديق " ، سألت أحد الشبان ليدلني عليها ، وجرى بيننا حديث عفوي ، وأجبتة عن أنى طالب بليبيا ... الخ . فجأة صدرت منه حركات غريبة واقفل الطريق صائحا : إرهابي ، إرهابي ... إرهابي من ليبيا ينوى تفجير السينما . وذهبت معه لإدارة الأمن ، حيث قضينا ليلتنا تلك في التحقيق كل على حدة في أماكن مختلفة . عند الفجر تم حجزنا حتى وصول أحد المسؤولين الكبار للبت في أمرنا . ولعله كان عملا جادا لأجهزة أمن السادات .

صباح عيد الفطر - بعد ليلة مؤلمة ، قاسية - جمعنا مسئول الأمن وأحسبه برتبة عميد يبدو أنه كان متميزا مهنيا وأخلاقيا . بعد التحية بدأ الاستجواب :

- تكلم يا مصري .

تكلم المصري ، وقال الحقيقة تقريبا عن أحداث ليلتنا ، بعدها جاء نوري .

- تكلم يا سوداني .

- كلامه صحيح ، إلا أنه نسي كذا وكذا .

ولعل المصري كان يفترض إنكاري في التحقيق المنفرد ، لذلك جاءت صدمته وقال منفعا بصوت عال :

- هذا لا يكذب ، لا يكذب .

فرد عله العميد :

- دا سوداني ، تعرف يعنى إيه ؟

ثم صرفه وتكلم بالتليفون .
 (قال لمحدثه كلمة واحدة : المصري دا ... ، بعدها لم يخل على
 بزمه . أبدى مشاعره وأسفه لما حدث وطلب منى الحضور إلى
 مكتبه في أي وقت ، وأن بمصر الكثير من أمثال هؤلاء وسنقضي
 عليهم) .
 كان لحديثه أكبر الأثر في نفسي ، وأذهب عني تلك الوحشية التي
 واجهتني يوم العيد . وعبارته : دا سوداني .. تعرف سوداني يعنى إيه
 أراحتني وأعادتنى لذكريات جميلة كانت لي ببغداد .

السودان جزيرة

كعادتي كات محطتي الأساسية بيت الشباب بغداد ، الذي كنت
 العربي الوحيد فيه والبقية أجنب . وعند وصول ذات مساء وجدت
 أغلب النزلاء بالحديقة ، حبيتهم بالشكل التقليدي ، إلا أحد القادمين
 الجدد استبقاني قائلاً :

- أنت سوداني
- لوني منتشر في هذه المنطقة ، وكذلك التحدث بالإنجليزية .
- ليس اللون ولا اللغة !
- ممكن أعرف السبب ؟
- أنتم شئ نختلف في هذا العالم !
- في أي شئ نختلف عن الآخرين ؟
- صفات السودانيين كلها مختلفة عن العالم
- وبدا يعدد مزايا وصفات السودانيين :
- " التحية الودودة . طريقة حديثكم ، تعاملكم ، حياتكم المختلفة ،
 ابتسامتكم الدائمة ، كرمكم الفياض . السوداني يمكن أن يقدم كل ما
 لديه بلا مقابل . لا يثقل عليك بشيء إلا بتكرار السؤال عن احتياجك
 ليعينك " .

كنت أقف متسمرا ، ومندھشا لا أعرف ماذا أقول ، غير أنه واصل
حديثه مسترسلا :
- " لأكثر من سنتين وأن أجوب العالم ، لقد زرت معظم الدول .
السودان جزيرة معزولة ومختلفة في كل شئ عن الآخرين ، لكن هذا
الوضع لن يستمر طويلا . فوسائل الاتصال المتقدمة وحركة السفر
ستغير كل هذا . وإنها لخسارة كبيرة ضياع هذا النموذج الإنساني
الفريد . "

الفصل الثالث

د . موريس بوكاي

كانت ليبيا وخاصة بنغازي ، فترة دراستنا بها ، مركزا للندوات والمؤتمرات والمحاضرات العديدة ، لكونها تتمتع بتجهيزات حديثة وإمكانيات ضخمة تؤهلها في هذا المجال ، إضافة لثقافة واهتمام أعضاء هيئة التدريس . أذكر منها تلك المحاضرة القيمة التي قدمها موريس بوكاي - المفكر الكبير . لقد كانت عن المقارنة بين العلم الحديث وما جاء بالكتب السماوية . اقتصر الحضور على المهتمين بالفكر وعدد من الطلاب . وفي خلال هذه المحاضرة خلص د . موريس إلى وجود تناقضات عديدة بين العلم الحديث وما جاء في نصوص الكتب السماوية .. مستثنيا منها القرآن الكريم . حيث أكد على عدم وجود أي آية من آيات القرآن تتناقض مع العلم . وذهب الى أكثر من ذلك حيث شهد بأسبقية القرآن في تناول الحقائق العلمية والإعجاز العلمي في القرآن ، إذ ما طرحه القرآن لم يتم التوصل إليه الا في السنوات الأخيرة . وأذكر قراءته بالعربي وبلهجة مخرجة للآية :

" إن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل

شيء حي " صدق الله العظيم

كما تطرق لما ذكره القرآن عن الخلق وعملية تطور وتكوين الجنين . وعن النقل والتفسير للآيات ذكر أن النساخ والمفسرين كانوا يتناقلون كلاما لا يعرفون معناه ولا أهمية لديهم لترتيبه ولكنهم في نفس الوقت كانوا شديدي الانضباط والأمانة ولم يحدث منهم أي تقديم أو تأخير في ذلك ، مؤكدا وبثقة كاملة أن القرآن لم يلحق به تحريف أو تبديل ، وهو محفوظ كما انزل : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنالاه لحافظون " صدق الله العظيم .

وكنا نجد متسعا في التحدث ومحاورة المحاضرين ، نسبة لمحدودية المهتمين بمثل هذه المواضيع . كما كان عامل اللغة غالبا ما يقف حاجزا أمام معظم الرواد . بعد المحاضرة سألته إذا ما كان قد أسلم بعد أن توصل إلى هذه الحقائق عن القرآن الكريم . فأجاب بالرفض . فوجهت له السؤال :

– إذن فما الفائدة من العلم والبحث ؟

– إن مهمتي هي البحث عن الحقيقة ونشرها وهذا ما فعلته فعلا . عندها أخبرته أن ذلك يسمى عند المسلمين " العلم الذي لا ينفع " تمشيا مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " اللهم إني أسألك علما نافعا وزرقا طيبا وعملا متقبلا " .

لاحقا علمت أنه قد أسلم وأصبح من كبار الدعاة الإسلاميين .
النفق لمحاورة د . مورييس كانت زيارة الممثلة الشهيرة فينسيا أريد جريق – بدعوة من الأخوة الليبيين – غير إننا لم نسمع لها صوتا أو نرى لها دورا غير تراحم الطلبة عليها لأخذ الصور التذكارية معها وجمع توقيعاتها . مالم تكن دعوتها كدعوة بطل الملاكمة للوزن الثقيل محمد على كلاي لحضور مسيرة الإسلاميين المليونية لتطبيق الشريعة الإسلامية في السودان في عهد النميري . أذكر ما طرحه الأخوان الجمهوريون – الحزب الجمهوري سابقا – بأن دعاة المسيرة من الإسلاميين لا يهمهم الكيف بقدر ما يهمهم الكم والدعاية الإعلامية وإلا فما الحكمة من دعوة كلاي لتطبيق الشريعة الإسلامية في السودان ، هذا الكلاي الذي لم يمنعه دينه من توجيه لكماته القاتلة للآخرين بلا سبب إلا للشهرة والمال وحب الدنيا . ولعل هذه البدعة أصبحت طاغية في سلوك وفكر بعض التيارات السياسية كالمتاجرة بالدين وبالقضايا العامة .

د محمد مهدي

من ضمن المؤتمرات التي استضافتها قاعات جامعة بنغازي أكبر مؤتمر للمهتمين بالقضية الفلسطينية ، وأحسبه من أكبر وأهم المؤتمرات التي عقدت في تلك الفترة نسبة للإعداد المتقن والدعوات المكثفة مع التغطية الإعلامية القوية بالإضافة للحضور الكبير لكل الأحزاب السياسية ومختلف الأديان والمذاهب من كل دول العالم .

بدأ المؤتمرات كالعادة بالحماس الزائد والشعارات السياسية الملتهبة لكيفية تحرر فلسطين . ولعل كل الأوراق التي قدمت لم تخرج عن هذا السياق . قدمت أوراق عديدة في عشرات الصفحات تفنن مقدموها في عرضها ، حتى جاء دور د . محمد مهدي - رئيس الجالية العربية بأمريكا في ذلك الوقت . لوح ضاحكا بصفحة واحدة متوسطة الحجم متضمنة ست أو سبع نقاط . بعد تلاوته للورقة زلزل المؤتمر وعصف استقراره . بعدها تخطى المؤتمرون عن كل ما جاؤا إليه واصطفوا قوة واحدة للرد والهجوم المضاد على د . محمد مهدي ، وأنه تربية أمريكية وإن لم يقولوا العميل الأمريكي صراحة . وهكذا ضاعت القضية الفلسطينية كالعادة بين السب والتجريح . ورغم كل ذلك الخروج عن السياق الموضوعي والحوار المثمر احتفظ د . مهدي بابتسامته الودودة مستعينا بالصبر والحكمة متبعا الرد العقلاني المذهب . ولعله من المفيد هنا أن نوجز بعضا مما جاء بورقته الزلزال:

- نادى بضرورة تعديل الشعار الدائم " بالبندقية والبندقية فقط تحرر فلسطين " على أن يكون " بالكلمة ثم البندقية فالكلمة " .
- انتقد الصرف على السلاح بلا طائل وطالب بتحويل نسبة مئوية قليلة للإعلام .
- ضرب أمثله عديدة منها أنه عند وقف ضخ النفط خلال أكتوبو ١٩٧٣ وغياب التفسير العربي لأهداف المقاطعة العربية تطوع

الإسرائيليون بالتفسير على هواهم ، مستغلين إعلامهم القوى في ذلك مما كان له أبلغ الآثار السلبية على نتائج المقاطعة .

وللاختصار : لم تكن فكرة الصرف على الإعلام والاهتمام به مقبولة بالنسبة للمؤتمرين ، خاصة وأن شعارهم المقدس لا يقبل المساس - بالبندقية فقط - ولعل ما يتم الآن على الساحة العربية والدولية وما تشهده المسيرة السلمية للفلسطينيين أكبر دليل على منطقية وصواب طرح د . مهدي الذي انعزل بجسمه وفكره عن المؤتمرين . وكان للاتهامات العديدة التي وجهت له كبير الأثر عليه . وهكذا أتاحت لي فرصة ملازمته طوال أيام المؤتمر التالية وحتى مغادرته ، خففت عليه بعض الإحباط والمرارة التي أصابته وأخبرته بأن ما طرحه يعتبر الجهد العقلاني والمنطقي الوحيد في هذا المؤتمر . فقال أن هؤلاء لا يرجي منهم والأمل فيكم أنتم الشباب ، كما حدثني عن نشاطاته بأمريكا ، ومؤلفاته ودفاعه المستمر عن القضية الفلسطينية . وذكر أن لقائي به يعوضه عن جهده الذي ضاع في المؤتمر ، واقترح على السفر لأمريكا وأنه يتكفل بتوفير فرصة عمل بمنظمة الأمم المتحدة . وهكذا افترقنا على أعز ما يكون الأصدقاء على أمل اللقاء والعمل المشترك . غفر الله له واسكنه فسيح جناته حيث لا يسمع فيها لغوا ولا تأثيما .

ويبدو أن اللغو والتأثيم من أكبر المنغصات في هذه الحياة ، وهي عادة نتيجة عقليات خربة ومتدنية فكريا وسلوكيا .

د . أحمد الدرش

امتدادا للمحاضرات والفعاليات العديدة التي كانت تقام ببغاري :
كان الدكتور أحمد الدرش - مصري الجنسية عمل لسنين طويلة بالجامعات الأمريكية - يقوم بالترجمة الفورية لمحاضر أجنبي ، فتوقف عند كلمة Misgided ، لم تسعفه الذاكرة بالمرادف العربي ،

وكننت حينها أجلس بالصفوف الأمامية ، فقلت له : المضللين . فكررها بالميكرفون وواصل ترجمته للمحاضرة . وقد كانت هذه بداية صداقة قوية بيننا ، وكثيرا ما دعاني لمنزله . وقد كان كريما سمحا هو وزوجته الزميلة الفاضلة " صافيناز " ، التي كانت متقنة لعمل اللحم المشوي بالجمر . أذكر إنني عرضت عليه ذات مرة موضوعا سياسيا قبل رفعة للقيادة الليبية فقال لي أنه في مثل هذه الحالة يفضل بقاء الرسائل الهامة معه لمدة أسبوع قبل التصرف فيها .

كان متميزا وله طريقة في التدريس متقدمة جدا ، حيث أنه دائما ما يطلب من طلبة القسم اختيار مواضيع ذات أهمية لدراستها ومناقشتها . وقد كانت أول المتقدمين زميلة وكان موضوعها عن دور الدول المتقدمة في تنمية الدول الأقل نموا . بعد أن أكملت عرضها للموضوع سألتها :

- هل من مصلحة الدول المتقدمة تحقيق تنمية مستدامة وفعالية للدول الأقل نموا ؟

ولإجابتها البسيطة تدخل د . الدرش معلقا أن هذا الموضوع ليس بهذه البساطة وفيه الكثير من التعقيدات والافتراضات . برغم أن مداخلته هذه أصبغت جوا من الحيوية والعمق على النقاش ، إلا أنه ترك أثرا سلبيا ومحبطا للطالبة التي شعرت بالحرج . وامتنلت للمطالبة الجماعية ألا أسأل قط . الأمر الذي لم يرض عنه أستاذنا الذي ذكرنا بأهداف السينمات الرئيسية وضرورة النقاش والحوار لتغطية كل جوانب الموضوع مثار البحث . ومن المؤكد أن طريقته كانت على درجة عالية من الإيجابية والفائدة العلمية ، وبأسلوب يجعل الطالب هو من يتوصل للنتائج . المفيد هنا أن نعقد مقارنة جزئية بسيطة بين هذه الطريقة وطرق أخرى ، ونسوق لذلك الأمثلة التالية :

عادة ما يتأخر بعض الطلبة عن وقت المحاضرة ، وتختلف ردود أفعال الأساتذة مع هذه الظاهرة . فمثلا د . البيه المصري - وهو من

الأساتذة ذوي الكفاءات العالية والخبرة الطويلة - كان يطلب أن يدخل الطالب المتأخر متلصصا من غير إزعاج ولا استئذان ، لكي لا يشوش دخوله على الأستاذ والطلبة ويعرقل مسيرة الدرس .. وقد حاولت الدخول ذات مرة - متلصصا - فلاحظت ابتسامة عريضة على وجهه . كررت نفس العملية في محاضرة د . أباز عكوك ولم يكن أستاذي ويبدو أنه قبل دخولي كان يتحدث عن ظاهرة التأخير والفوضى وعدم الانضباط . بمجرد دخولي متلصصا ثارت ثائثرته وانفعل قائلاً أن المدرج ليس فوضى وأن على الاستئذان ، فوليت خارجا فلحقني بالخارج وناداني لأخذ أسمي ، فأكدت له أنني لست من طليته وكنت أود حضور المحاضرة .

جاءتني رسالة من د . الدش قبل أيام من امتحانات نهاية العام وطلب مني موافاته لأمر هام . وفعلا ذهبت لمنزله فأخبرني بأنني الوحيد الذي يهمه أن يطلعه على حقيقة ما حدث له مع أبو عكوك أثناء رئاسة الأخير لاجتماع مجلس الكلية الدوري حيث ادخل د . الدش كلمة إنجليزية أثناء مداخلته مما أثار رئيس الاجتماع قائلاً : بما أننا عرب فيجب أن نتحدث بلغة العرب لا بلغة الأعداء . فرد عليه د . الدش أنه قضى سنينا طويلة بالولايات المتحدة الأمريكية ولا يمكنه تفادي إدخال بعض الكلمات الانجليزية مهما حاول . ورفض أن يعتذر قائلاً أنه ظل طيلة حياته يدافع عن العرب وقضايا أمتة حتى في نيويورك أكبر معقل الصهيونية العالمية ، وأنه لا يريد درسا في الوطنية من أحد .

ومن المؤسف أن أباز عكوك لم يترك له خيارات غير الاعتذار أو ترك العمل . وهكذا فقدت جامعة بنغازي وطلابها خبرة نادرة وشخصية متميزة لها إسهاماتها ودورها الريادي .

ما أوردناه عاليا لا يخرج من إطار الأمثلة العديدة التي واجهت الطالب منا في مسيرته بمختلف مراحلها وبتباين تام في مواقف

الأساتذة وطريقتهم ومنهجهم في التعليم ، إضافة لسلوكياتهم في التعامل مع الطلاب ، ما يهمننا هنا إيضاح بعض جوانب التجربة وإخضاعها للبحث ، لكون التعليم حق طبيعي لكل مواطن ، ويتطلب توفير فرصة لكل طالب لديه قدرات كافية لمتابعة تحصيله العلمي والمهني . كما وأن التربية والتعليم عاملا ، ومؤشرا ، لإحداث تنمية اقتصادية واجتماعية شاملة .

لكن ما يعنينا المحتوى والهدف من التعليم ، ونفترض هنا أسئلة قد تعين على إدراك ذلك :

- ما مدى جدوى الطريقة التعليمية السائدة والقائمة على التلقين والحفظ ؟

- كيفية تخريج طلاب قادرين على قيادة المجتمع والنهوض به .

- ماهي السلوكيات المطلوبة داخل أطر المؤسسات التعليمية والتي توصلنا لأفضل النتائج ؟

وغير ذلك من أسئلة تبحث عن إجابة . ولعل القارئ يجد في هذه المؤشرات ما يثرى الحوار .

الفصل الرابع

الزملاء الفلسطينيين

يتكون الطلبة الوافدين بالجامعات الليبية من المسلمين بجنسياتهم المختلفة من مختلف دول العالم ، لكن غالبيتهم من الوطن العربي . ومن أكثر الجاليات الطلابية عددا في ذلك الوقت كان المصريين والفلسطينيين والسودانيين واليمنيين . وكعادة السودانيين في تعاملهم يرتبطون بمعظم هؤلاء الوافدين وبمختلف جنسياتهم بعلاقات صداقة قوية تبدأ عادة فردية ثم تتحول لعلاقات وتعاملات جماعية تشمل الأنشطة الطلابية المختلفة .

في شتاء العام الدراسي ١٩٧٩ / ١٩٨٠ اعتصم الطلبة الفلسطينيون بعد أن حظرت عليهم السلطات الليبية ممارسة الأنشطة السياسية ، وجاء تنفيذهم للاعتصام تحت المطر والبرد القارس أمام مكتبة بنى غازي المركزية بحيث يكونوا عرضة للمشاهدة من كل الجهات في بلد لم يعرف مثل هذه الإعتصامات والاجتماعات الاحتجاجية . بالطبع انصرف عنهم الجميع ، ولولا أنني أتمتع بصلات مع الليبيين ودائما أقول ما أؤمن به صراحة لما جازفت بالذهاب للمعتصمين والسؤال عن حالهم ، ولي فيهم أصدقاء ومعارف . سلموني منشورا مكتوب باليد أهم ما فيه إيضاح أسباب اعتصامهم الذي جاء إثر خلافات بين القيادة الليبية والمنظمة الفلسطينية ، وأنهم يحتجون على منعهم من ممارسة نشاطهم السياسي ، حيث أنهم أصحاب قضية ويمتهنون السياسة ولا معنى لوجودهم داخل الجامعة مع هذا الحظر .

ولاحتواء الوضع تحدثت الى الزميل والصديق المخضرم خليفة النواحي الذي وافق على إجراء اتصالات مع بعض الطلبة الليبيين الثوريين والإداريين بالجامعة . وكان التحرك سريعا وفاعلا بين

الجهات الليبية والفلسطينية أسفر عن اتفاق لفض الإعتصام وتفويض لجنة فلسطينية يناط بها التفاوض مع الجهات الإدارية والسياسية الليبية.

تمت الاجتماعات مع مدير الجامعة .. جولات عديدة سادها التعتت من كلا الجانبين وكثير من الإخفاقات والخلافات . واذكر أن الفلسطينيين إثر خلاف حاد لهم مع الليبيين أصروا على السفر وعلى نفقتهم الخاصة . عرضنا عليهم دعم الجالية السودانية ببغلازي وإن أي عجز مادي سيتم تغطيته منا ، وفي نفس الوقت كنا نضغط على الليبيين للتخلي ببعض المرونة ، خاصة وأن سفر الفلسطينيين بهذه الطريقة سيعرض مصداقيتهم ووحديتهم لامتحان عسير .

بعد بضعة أيام من العمل المتواصل تم توقيع الاتفاق المكتوب بين الطرفين وبوساطة سودانية . ولدهشنا طراً تغير سلبي في تعامل الفلسطينيين معنا بما يشبه المقاطعة . وبالسؤال عن ذلك علمنا من بعض الأصدقاء أنهم يعتقدون بأننا عملاء لليبيين . وبعد توضيحات عديدة لنفي التهمة عنا ، قرر الفلسطينيون الاعتذار لنا عن سوء الفهم ودعونا لاجتماع بخصوص ذلك . رفضت حضور اجتماع الصلح ، مكثفياً بأصدقائي القدامى منهم وعلى رأسهم المفكر والشاعر يحيى ، الذي جمعتني به صداقة حميمة وكنا نناقش دائماً في كل القضايا المطروحة على الساحة العربية خصوصاً القضية الفلسطينية والتسوية الشاملة .

وأذكر بعد نظره عندما قال : أنهم في نهاية المطاف سيتفقون ويندمجون مع الإسرائيليين للعيش بسلام سوياً ، وأن العرب لا يقدموا الكثير مما يخدم القضية الفلسطينية ومن الأفضل لهم الاعتماد على أنفسهم بدلاً من الاعتماد على المتاجرين بقضيتهم . وقد كان هذا الرأي بعيداً عن الشعارات السياسية في تلك الفترة . هذا الطرح يشابه

كثير رأى المفكر محمود محمد طه للتسوية الشاملة في الشرق الأوسط
وسنقف عندها بشكل أكبر في موضع آخر من هذا الكتاب .

الزميلة فاطمة وزوجها

ذات جمعة من ربيع ١٩٧٦ ونحن بالنسبة الأولى تكرمست علينا
الكلية برحلة حسنة الإعداد لمنطقة جبلية خضراء رائعة الجمال . عند
وصولنا مكان الرحلة جاءتني الزميلة الفلسطينية التي أعرفها بالشكل
فقط ، زميلة في دفعتنا التي يتجاوز عددها الثمانمائة وبمعيتها شاب
وقالت موجهة حديثها له :

- هذا هو الزميل كمال السوداني الذي حدثتك عنه.

ثم وجهت كلامها لي :

- زوجي يا كمال ، طالب ماجستير لغة عربية .

وبعد إتمام التعارف ترافقنا أنا وزوجها ولم نفترق طوال اليوم ،
وكانت تتردد علينا من حين لآخر للاطمئنان على أنها أحسنت صنعا ،
ولتقديم خدماتها . وقد أحسنت في ذلك فعلا فقد كان زوجها على ثقافة
عالية شأنه في ذلك شأن الكثير من الفلسطينيين ، مع روح إنسانية
شفافة راقية وسلوك وتعامل في غاية التهذيب . تحدثنا في السياسة ،
الأدب ، الدين واحتمالات المستقبل وكنا مندمجين لأبعد ما يكون .
ونكرر هنا أن المودة والتفاهم والانسجام ليست بطول المدة إنما بأشياء
أخرى أكثر إيجابية وفاعلية .

صباح اليوم التالي كنت مهتما ببقاء الزميلة فاطمة بالكلية لأنقل لها
إعجابي بزوجها ، غير أنها لم تأت في ذلك اليوم ، وليس في ذلك ما
يريب . علمت صباح الأحد أن إحدى صديقاتها تسأل عنى بانزعاج .
وذهبت لمقابلة إيمان المصرية وبلهفة ، والتقيتها حيث أخبرتني أن
زوج فاطمة قد توفي مساء الجمعة صباح السبت . كان وقع الخبر

على ثقيلًا . شعرت بأن روحي تتسل من داخلي . ذهبت لزيارتها ومواساتها .

ويبدو أن وقع الكوارث على الشعوب يزيد لها مناعة وصلابة لا تتوافر في الآخرين . فقد كانت فاطمة متماسكة ، تحدثنا عن زوجها وذكرت أنني آخر من كان يتحدث عنه قبل النوم . وقال لها أنني إذا وجدت الرعاية- وليتي وجدتها - فسأقدم الكثير . وطلب منها دعوتي لزيارته بالمنزل . طلبت مني الزميلة المنكوبة أن أخذ كتبه الخاصة لأنني أقرب الناس إليه - سبحان الله .. معرفة يوم واحد - رفضت بإصرار حتى بعد أن أشاروا على بالاحتفاظ ببعضها لذكرى الصديق الراحل ، وسلمتها كاملة هدية بأسمه لمكتبة جامعة بنغازي المركزية ، تركية لروحه وبدنه .

رحمه الله .. فقد وجدت فيه مفهوما رائعا للعلاقات الإنسانية ، ونعتقد أننا لم نذهب بعيدا عن تأسيسنا لهذا الباب حين افترضنا أن العلاقات الاجتماعية الاختيارية المبنية على التفاهم والانسجام واشتقاقها من كلمة الصدق تحمل مدلولات لهذه العلاقة . يرى الكثيرون أننا نسير في هذه الحياة عبر الزمان ولا ندرك ما قد يلقانا . قد نتفق على أن الحب والعشق والصداقة مجموعة قيم وأحاسيس تجتاحنا بدون أي فرضيات عقلانية ، فهي ارتباط الروح قد تستلبنا في لحظة قصيرة من فترات حياتنا .

فلنسع في الحياة حتى نرى
في الأرض متسعا من الصدق الدفيء

الفصل الخامس

الثورة في الجامعة

فيما تبقى من هذا الباب ، نذكر بعض الإشارات عن الوضع العام ، الذي كان سائدا بالجماهير الليبية في تلك الفترة . ولنبداً من جامعة بنغازي التي تحولت إلى جامعة قاريونس - قرية قريبة من بنغازي - إثر مظاهرات طلابية حاشدة في نهاية عام ١٩٧٥ ومطلع ١٩٧٦ ، والتي قام بها الطلاب المعارضين لنظام القذافي وقد صاحبها أعمال عنف دموي ، مات وقتل بها عدد من الطلاب المعارضين . ونحسبه ليس غريباً أن يتم ذلك في نظام قائم على حكم الفرد مهما تكن ميزات وإيجابيات هذا الفرد . بعد الإعدامات في أبريل ١٩٧٦ فرض الطلبة الموالين للقذافي سيطرتهم التامة على كل جوانب الحياة بالجامعة بما فيها الأنشطة الطلابية المختلفة . وقد كان النظام يعتمد عليهم كثيراً في بسط الأمن وحفظ استقرار الجامعة .

القذافي وجامعة قاريونس

الجدير بالذكر علاقة القذافي الحميمة مع جامعة قاريونس ، إذ أنه كثير الزيارات لها .. الرسمية والخاصة . وعادة ما كان يتناول معنا بعض الوجبات في مطاعم الداخلية بغير رسميات ، مثله والطلبة بمودة وروح دعابية لا أظن الآخرين يتصورونها فيه . اذكر ذات مرة في مطعم داخلية بيت عشرة بمنطقة البركة تحدث وهو جالس مصادفة بجوارنا قائلاً :

" انتم أسعد الناس في هذه الحياة . كل حاجياتكم مكفولة ومتفرغين للدراسة ، تستمعون بالحياة بلا هموم ولا مسؤوليات " .

ولعله كان صائبا في ذلك ، إذ كنا بجامعة بنغازي ننعم بالحياة وكل متطلباتنا متوفرة في أجمل منطقة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

كان القذافي يخصنا بالأحاديث الخاصة في السياسة وغيرها ، واذكر أنه حكى ذات مرة بعد اعدامات الطلبة أنه كان في زيارة للسودان للمشاركة في احتفالات بمدينة " واو " في أول يناير ١٩٧٦ . وجاءه النميري قبل نومه وببراءة مصطنعة قدم له نشرة مطبوعة بأخر أنباء المظاهرات والعنف الدامي بالجماهيرية ، ولعلها في بدايات تدهور العلاقات بين وحدويي الأمس ، وكان قد مضت بضعة سنين على مشاركة القذافي الفاعلة لاعادة نميري إلى الحكم عقب انقلاب هاشم العطا في يوليو ٧١ والبروفسير الشيشكلي - وزير خارجية سوري سابق - تعليق على تسليم بابكر النور وفاروق حمد الله : بأن ما تم يعتبر قرصنه تعرض لها رئيس دولة سلم لعدوه لقتله . ولأن ذلك يعتبر تدخلا سافرا في الشؤون الداخلية للدول ، وأن ليبيا ستدفع الثمن غالبا .

بعد إعلان العدواة رسميا إبان أحداث يوليو ٧٦ تم قطع العلاقة السودانية الليبية ، وفي خطاب رسمي للقذافي نعت النميري بأنه عبد . ورغم معارضتنا للنميري إلا أننا اعترضنا على هذا النعت ، وعقدنا الاجتماعات المطولة للرد على القذافي بسبب إساءته للشعب السوداني . وكنا نحن أبناء البحر أكثر غضبا وانفعالا من زملائنا أبناء الغرب ، حتى علق أحدهم بأن الكلمة قد آلمت الجميع ، ولو كان الآخرون انفعاليين مثلنا لتفرق السودان ، وأحسبه صادقا .

القذافي ووزير خارجية ألمانيا الشرقية

ونختتم حديثنا عن القذافي بحادثة غير معلنة ، حين التقى وزير خارجية ألمانيا الشرقية - وقتها كان القذافي يضع الشرق الشيوعي والغرب الرأسمالي فيما يشبه التصنيف الموحد أمام نظريته العالمية الثالثة - قال للوزير متهمًا :
- أنتم مستعمرة روسية فلا تخذعوا أنفسكم .

فرد الوزير :

- نحن بالفعل مستعمرة لدولة عظمى عدد سكانها يفوق أضعاف سكان ألمانيا الشرقية . أما انتم يا عرب فمستعمرين من ثلاثة مليون يهودي في حين أنكم أكثر منهم بخمسين ضعفا . صمت زعيمنا على قوله . ويبدو أن السياسة والعمل العام أدت بطريقة مباشرة لتشويه شخصية ونفسية ومواقف القذافي وأحسبه من خيرة الأصدقاء إذا كان مهنيا أو أكاديميا أو شئ آخر غير كونه سياسيا . إذ يتمتع الرجل بشخصية فريدة مرححة وودودة ، وحيه للسودان والسودانيين بلا حدود ، بيد أن التحولات التي طرأت عليه كانت نتاجا طبيعيا لأوضاع الدول العربية ونظم الحكم فيها .

الصادق دهان

من أميز الطلبة الليبيين الذين تعرفت عليهم ، الصديق العزيز الصادق دهان . رغم إيمانه المطلق بالثورة وقائدها وفيض مشاعره القومية إلا أنه كان مرنا ، واسع الثقافة ، وكثير الاهتمامات . تربطه علاقة شخصية وثيقة مع قائد ثورة الفاتح من سبتمبر . وعن طريقه تعرفت بأبرز الطلبة الثوريين .. منهم على سبيل المثال : محمد الأسود وعمر السوداني واحمد إبراهيم . ورغم توطد العلاقة بيننا إلا أنني لم ألتزم معهم خطأ تنظيميا ، محافظا على حريتي الفكرية من التقييد داخل الأطر الحزبية ، كما رفضت تحقيق أي مكاسب مادية عن طريقهم . رفضت دعوات واستضافات وتذاكر طيران قدمت لي . وبما أنني كنت مهتما بالكتابة والترجمة ، عرض على الزميل الصادق العمل كمستشار بوزارة الثقافة ، إلا أنني رفضت ، على الرغم من رؤية الصادق أن ما يقدمه ليس من باب الاسترضاء ولكن مقابل عمل حقيقي أقوم به ، مع إعطائي كل الحرية في التعبير عن قناعاتي كاملة مهما كان الموضوع والخلاف . ولعل

مبدأ رفضي يكمن في أن الدين والسياسة والفكر ليست مهنا لاكتساب العيش إلا في نطاق إداري أو فني ... الخ ، وأن إدخال الحسابات المادية يؤدي بالضرورة إلى انحراف الفرد والفكر .

الفصل السادس

ثورة شعبيه أم انتفاضية حرامية ؟

عندما رفع الرئيس الراحل أنور السادات أسعار الخبز في يناير ٧٧ اندلعت مظاهرات عنيفة بمصر ، وصفها السادات بانتفاضية الحرامية ، غير أن القيادة الليبية وصفتها بالانتفاضة الثورية والشعبية التي ستقتلع نظام السادات (الخائن العميل) ، وهلت وكبرت لذلك القيادات السياسية ، والإعلام بشتى وسائله . قابلت الصادق دهان وعبرت له عن رأيي بأن ما حدث لم يكن بانتفاضة حرامية ولا ثورة شعبية ، إنما هو انعكاس طبيعي ومباشر للأوضاع الاقتصادية المصرية . وأن الشعب المصري يحارب ويكافح من أجل القضايا العربية ، فإذا حدثت الهزيمة فهي مصرية ، أما النصر والمكاسب فهي عربية . وأن هذه آخر فرصة يمنحها السادات للأنظمة العربية ، فإما الدعم المادي والمعنوي الكامل لنظامه وإلا عقد صلحا مع إسرائيل . وعليه يتعين على النظام الليبي - القيادة الثورية الليبية - اتخاذ قرارات ثورية ، استراتيجية ، مصرية وسريعة تتمثل في :

- أ - وقف الحملة الإعلامية والسياسية المضادة لنظام السادات .
- ب - تقديم الدعم الفوري والكامل وغير المشروط .
- ج - تبني استراتيجية جديدة للتعامل مع مصر ونظامها .
- د - دعوة الدول العربية بنشاط دبلوماسي ليلي لإقناع الأنظمة العربية لاتخاذ قرارات مماثلة .

وعبرت عن رأيي بأن السادات يتمتع بشجاعة تكفى لاتخاذ القرارات المناسبة والحاسمة التي يراها أصلح لبلده ومواطنيه . اندهش الصادق ، وأكد أن من الاستحالة أن يتم ذلك ، وفي حالة حدوثه ستكون نهاية السادات . واتفقنا على أن أقوم بكتابة ذلك معنونا للقذافي شخصيا ، على أن يقوم بتسليمه له فورا . وهو مع حيويته

وكفافته وتقدم فكره إلا أن ولائه الأعمى لقائده الثوري ، يحد من رؤياه بعدها حدثت جفوه وفتور بيننا لم يتطور لمرحلة المضايقات والانتهاكات رغم طلبه تقارير عن نشاطاتي السياسية . استمر ذلك حتى مبادرة السادات للسلام . جاعني الصادق للإعراب عن أسفه لصدق التوقعات ، وأنهم في القيادة لم يضعوا له حساب . وسألني أن كانت لدى رغبة في لقاء القذافي ، فأجبت بـ أن لا داعي لذلك طالما رسائلي تصله . وأخبرني لاحقاً بتأييد القذافي لوجهة النظر هذه . بعد ذلك كتبت بناء على طلبهم عن تصوري للفترة القادمة ، جاء فيه :

- ١ . يجب الابتعاد عن استفزاز القيادة المصرية والاحتكاك بها فليس من مصلحة جميع الأطراف حدوث خصومات وحروب بالمنطقة .
- ٢ . انهيار الاتحاد السوفيتي في المدى القريب لأسباب داخلية وأخرى خارجية ناتجة عن كفاءة وإيجابية النظام الرأسمالي الديمقراطي نسبياً .
- ٣ . لتفوق النظام الرأسمالي على النظام الإسلامي غير المحدد المعالم ، يجب بذل الجهد الفكري والسياسي لإبراز نظام إسلامي حقيقي يستطيع الصمود أمام النظام الرأسمالي .
- ٤ . التركيز على تأسيس نظام ليبي ديمقراطي تقدمي ونموذجي يمكنه قيادة الأمة ، مع العمل لأحداث تنميه شاملة ومستمرة وإيجاد صيغة للتعاملات والتكامل الاقتصادي بين الدول العربية بعيداً عن الخلافات السياسية القائمة .

الوحدة بالقوى

وكان ردهم على أفكاري تلك أن روجوا لمقولة أن التاريخ اثبت أن الوحدة لا تتم طواعية بل تتم بالقوة فقط ، واستندوا في تحليلهم للوحدة الألمانية والإيطالية ، وقبلها وحدة الأمة الإسلامية .. وخططوا لتحقيق ذلك .

وهكذا جاءت عملية غزو تشاد ، والتخطيط لغزو السودان ، حتى يتمكنوا من السيطرة على مياه النيل وبالتالي السيطرة على مصر . وهذا هو المفهوم السياسي والعسكري الذي أدى لمواجهة عسكرية مباشرة مع الولايات المتحدة بالأمريكية . ووجدت نفسي متفقاً مع بروفيسور الشيشكلي بأن القيادة الليبية ستدفع الثمن غالياً في تجاوزاتها السياسية والعسكرية وتدخلها في شئون الآخرين .

إلغاء التجارة

من الموضوعات التي ناقشناها مع الليبيين موضوع إلغاء مهنة التجارة ووصفها بالاستغلال ، حيث رأينا أنه أمر لا يجوز على الإطلاق طالما ورد في إباحتها نص قرآني صريح وهم يقولون بأن القرآن شريعة المجتمع . يمكن وضع ضوابط للتجارة ، أما المنع فلا . ومن ناحية اقتصادية عملية فإن مشروع الأسواق العامة لمحتكر وحيد للسلع والتجارة ، فيه من المحاذير والسلبيات على المواطن والدولة ما يعجل بنهايته وفشله .

وبالفعل رأينا وسمعنا عن السوق السوداء بإخراج السلع من الأسواق المركزية وسرقة الأسواق وإشعال النيران فيها . ومن الطرائف ما حدث بالنسبة للأحذية إذ تم خلطها بمقاسات مختلفة ، شمالات مع بعض وكذلك يمينات ، وبيعها بأبخس الأثمان .

الديمقراطية

من أهم القضايا التي ناقشناها معهم - الصادق وزملائه - مسألة الديمقراطية والحريات ، وأن على النظام أن يهيئ الشعب الليبي للديمقراطية وذلك بإطلاق الحريات تدريجياً . وبما إنه كان لا يمكن رفض المبدأ صراحة ، فإنهم كانوا يضعون المحاذير ، كعدم أهلية المجتمع الليبي ... ولكن أخيراً كانت الحجة الدامغة : أننا شاركنا في

سفك الدماء ، وسيستغل أي قدر من الحرية للإطاحة بالنظام ،
وستحدث تصفيات دموية لنا .

اغتيال القذافي

يقال أن النميري في آخر عهده صرح بأنه أرسل خمسمائة من عناصر الأمن لليبيا لاغتيال القذافي . لكن المؤكد أن السودانيين في ليبيا تعرضوا للمساءلات والمضايقات . وكنت هناك في أوائل العام ١٩٨٤ في المراحل الأخيرة من إعدادي لرسالة ماجستير في علم الاقتصاد من جامعة قاريونس ، فوجدت أن من الأفضل التضحية بما بذلته من جهد بدلا عن احتمالات التعرض لمشاكل جدية مع أجهزة الأمن .

الاحتفال باغتيال السادات

الأمر الغريب أن تعم البهجة والاحتفالات أرجاء الجماهيرية بعد حادث اغتيال السادات ، ذلك الأمر الذي لم نجد له تفسيراً ، استناداً للمفاهيم السودانية عن الموت وحرمة .

تكلمت مع الزميل خليفه النوحى عن ظاهرة الاحتفال في ليبيا لموت السادات . ولا خلاف في أن السادات قام بإنجازات كبيرة على المستويين السياسي والعسكري ، ويمكن الاختلاف في نتائج مبادرته مع إسرائيل التي لا يمكن الحكم عليها إلا في المدى البعيد ، لكن ظاهرة الابتهاج للاغتيال فلا . ولسنا نرضاه . حيث أن موت الفود لا يقتصر على الجانب السياسي من حياته ، وكل من ماتوا لهم زوجات وأولاد وأهل وعشيرة ، يفقدونهم ولا يغنيهم في فجيعتهم الخوض في مسائل خلاقية حول الدين والسياسة . أما أولئك الذين أنفذوا عملية الاغتيال - حيث يرون السادات وصمة عار في جبين الأمة الإسلامية - هل حققوا ما أرادوا وأوقفوا العملية السلمية؟؟

هل غيروا نظام الحكم أو سياسة البلد ؟؟

هل أقاموا الدولة الإسلامية ؟

لا نعتقد أنهم خدموا الإسلام والمسلمين . ولا نعتقد أنهم بحثوا أو استشاروا حتى يفتوا في هذه العملية الخلافية الخطيرة . وما نراه أنهم سفكوا الدماء وضحوا بالنفس في سبيل هدف أقل ما يوصف أنه غامض وخلافي .

خالد الإسلامبولي

بعد أيام أخبرني زميل أنه بمجلة (كذا) نشر وصور منفذ عملية الاغتيال ، وذكر أنه مشهور بالإسلامبولي ، كان وقع الخبر مؤلماً . الإسلامبولي ، أتمنى ألا يكون خالد أحمد شوقي . وهرعنا للبحث عن المجلة ، ولم أكن محتاجاً للبحث عن الاسم فالصورة كانت كافية برغم وجود اللحية الكثيفة .

يا إلهي ، ماذا فعلت يا صديقي ؟ من هداك لما فعلت ؟ أهلك ، والدتك وشقيقتك ماذا فعلت بهم ؟ إن ما يعرفونه عنك من الفضل والخير أضعاف ما لمستته فيك .

وهكذا مضى خالد سريعاً في إنجاز ما عاهد به نفسه في حين خذله الأكاديميون والمفكرون الذين من واجبهم إنارة الطريق . لم يقدموا الفهم القويم للإسلام والجهاد . ونسأل الله تعالى الغفور الرحيم أن يتولى القتل من كلا الجانبين - السادات والإسلامبولي - بعفوه ورضاه " وأن يجعلهم ممن قال فيهم :

" ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سمر متقابلين "

الحجر ٤٧

ولو أنهم اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله وصحيح الدين لما وصل المسلمون لما هم عليه حالياً من هوان وفتن تتقاذفهم كاليم لا يدرون السبيل للخروج منها .

" إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم " سورة الإسراء : ٩
" أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا
الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين " سورة
العنكبوت : ٢ - ٣

ونحسب أن أغلب أصحاب الفكر والعلم كانوا ولا يزالوا في
المعسكر الذي هزم عقائديا وفكريا ولا تزال أثر الصدمة مسيطرا على
أعصابهم وأفكارهم ، وقد كفوا عن التفكير والكتابة . لا بد من العودة
للإسلام دين الله الحق حتى لا نقع في خندق الأوهام والأساطير
مجددا . لا بد من العودة إلى خندق المجاهدين الصحيح ، ليس بالقتال
وحده وإنما بالدعوة أولا

قال تعالى : " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة "
سورة النحل ١٢٥ صدق الله العظيم .

الباب الثاني

الإنسان والكيد

تأسيس

تحد المكونات النفسية والعوامل الاجتماعية من حرية الفرد في سلوكه الاجتماعي ، ويتم تعريف هذه المعطيات من خلال الأنظمة الرمزية التي تربط الفرد بمجتمعه . وهذه المعطيات تخضع لقواعد الأنثروبولوجيا الاجتماعية القائمة على توارث واكتساب التراث الحضاري والفلكلوري . ولهذه الأنظمة الرمزية قدرة التواصل عبر الأجيال ، وهي ممكنة الاستخدام للتعامل مع الغيبيات . كما أنها مكيفة للتعامل مع الخصائص المميزة لحضارتها ، حيث تأتي اللغة في مقدمة هذه النظم الرمزية وتليها العناصر الأنثروبولوجية المتجسدة في تراث الجماعة . وهكذا فإن عناصر العقل الجمعي ليست من صنع الأفراد وإنما هي تنشأ عن اجتماعهم . لذلك تقاس قيمة الفرد بقدرته على التعديل الإيجابي في النظم الرمزية للعقل الجمعي ، وفي المقابل تقاس صحة الجماعة بقدرتها على تقبل هذه التعديلات وإدراك قيمة محدثيها .

كما أن الثورات تساعد على التدمير الكلي للمفاهيم المجتمعية السائدة والتي أصبحت مهجورة ، لكنها لا تزال رازحة تحت نير الأعراف والقوميات والتقاليد . وبدءاً من اللحظة التي أخذ الناس فيها بمناقشة فكرة كبرى ونقدها ، فإن زمن احتضارها قد ابتدأ . ولعل هذا ما حدث للامة العربية والإسلامية في الفترة الأخيرة ، حيث تعيش المجتمعات العربية الآن حالة شد عجيبة ، بين ماضيها السلفي وحاضرها المتطلع لنبد الماضي ومسايرة الحياة العصرية . فهي تعيش على فتات الحضارة الغربية ، نتيجة الثورة العلمية - التقنية - في ظل نظام عالمي جديد أحادى القطب ، والتي أخذت طريقها سريعاً إلى مختلف المجتمعات ، بدعم رأسمالي ومؤسساتي كبير . وفي نفس الوقت فتحت إمكانات واسعة للتطور الثقافي الذي لم يكن يوماً في

حالة جمود تام ، فقد كانت خطوط تقدمه تسابير الخط العام للتقدم الاجتماعي . إلا أن التغير جاء حاداً وفي شكل غزو ثقافي يعرض مجتمعاتنا وهويتنا للخطر ، إضافة لعدم وجود مفاهيم ثقافية جديدة نابعة من مجتمعنا ، الأمر الذي يحمل مفكرينا مسؤوليات جسام .

وفي نفس الوقت فإن التطلع إلى القيم التقليدية وإلى ما أضيف إليها من قيم مستحدثة في ظل هذا الانفجار المعلوماتي يتطلب شيئاً من التحوط والحذر . لأن نقل الصورة الإبداعية يتم عبر التواصل التاريخي في الحياة الثقافية للشعوب والأمم ، وكذلك عن طريق إنتاج وانتقاء القيم المؤقتة ، مما يدفع إلى ضرورة معرفة العوامل الداخلية التي تضمن الهجرة الطويلة والممتدة لعناصر الثقافة الأساسية . أي أن علينا أن نعي مدي أهمية التواصل الثقافي وكيفية الاستفادة من معطيات الثقافة الناجحة ، وعدم الوقوع في مزالق النقل الخطرة ، من جراء الركض السريع خلف الأوهام والمستجدات الخادعة وعدم القدرة على الإمساك بشروط التواصل الحقيقي .

الفصل الأول

بيت الشباب

كان بيت الشباب في الخرطوم (٢) ، شرق سوق الخرطوم (٢) ، يقع في أجمل منطقة سكنية بالخرطوم (لعل وضع بيت شباب في تلك المنطقة يعتبر كسباً كبير) قبل أن يستحوذ عليه العميد يوسف عبد الفتاح - وزير الشباب والرياضة - ويصيره مكاتب ، مما يعد خسارة لجمعية بيوت الشباب السودانية والعالمية ، ولو جاء القرار من أي جهة ير وزارة الشباب لكان أخف واقعا . وكما ينسب لأحد المتحدثين عندما سئل عن ثورة الإنقاذ ، فقال : إنها مثل " كبش البطاحين .. جابوه للغنم يعشرهن ، قام رضعهن " .

بمجرد وصولي لبيت الشباب لأول مرة لاحظت وجود خلافات بين الإدارة وبعض أعضاء الجمعية النشطين ، وسبب الخلاف إصرار الأعضاء أن تتكون لجنة البيت بالانتخاب ، في حين تصر السلطة على تعيينها مباشرة ، وكان على رأس مجلس الإدارة عميد بالمعاش . مساء ذات يوم دعانا كبار الأعضاء للاجتماع بالبيت في مشروع عريضة لرفعها ليوسف عبد الفتاح وزير الشباب ضد العميد المسؤول . بعد مناقشة المشاكل والأحداث وعند منتصف الليل تم إقرار بنود عريضة الشكوى . وفي انتظار لجنة الصياغة والطباعة دارت نقاشات جانبية بحديقة البيت فقلت لهم :

- لا أعرف عن المشاكل التي تم نقاشها شئ كثير ، إلا أن العجلة وعدم التريث واضحة للعيان .

دافع الرؤساء عن قرارهم ، وقالوا أنني أخاف الطرد من البيت لأنني أصبحت من ذوي الإقامة الدائمة .

الحمد لله أمامنا الليل ، فمن كان يتوسم في نفسه صلاحا فليستخر ، ومن كان يتهم نفسه بالعقل فليفكر . اختلط الجد بالهزل ودافعت :

- الجمعية ليست خارج إطار النظام السياسي والإداري للسودان ،
والعسكر دائماً لبعضهم ، بصرف النظر عن السلطة القائمة ، لذلك
فإن شكوى عميد بالمعاش بالخدمة لن تأتي بخير .
من قبل أن يتبين الخيط الأبيض من الأسود من الفجر . كان قد مر
على معظم النزلاء . أعلموني بأنهم أعادوا النظر في الأمر ولن
يوقعوا على العريضة ، وهكذا قضى الأمر ، بعدها أصبحت مستشارا
لمعظم نزلاء البيت ، حتى في مشاكلهم شديدة الحساسية . ومن هنا
أتاحت لي فرصة نادرة لمعرفة مدي التحول والتغيرات في البيئة
الاجتماعية للسودان ، ولذلك أسباب عديدة تطرقنا لجزء منها في
تأسيسنا ، وسنوليها المزيد من الاهتمام في المستقبل القريب .
وحينما عصفت المشاكل بحياتي .. شأني شأن جزء كبير من أهل
السودان ، وجدت في هذا المنزل (في الحي الراقي وسط الخرطوم)
جنة حقيقية . كنت سعيداً في هذا المأوى - قليل التكاليف - وبدأت
ضرباً في شوارع الخرطوم . جربت كل الممكنات وبعض
المستحيلات . اكتسبت خبرة في كثير من المجالات ومعرفة بمختلف
الفئات : مهنيين ، موظفين ، تجار ، عاملين ، طلبة ، أطباء ، بائعي
خضار وحتى المشردين بأزقة العاصمة . وقد قاطعت المواصلات
مدفوعة الأجر ، وكانت تحركاتي إما سيراً على الأقدام أو بطريقة الـ
Auto Stop والتي تسمى في السودان : " يا عم " . ومن الأحداث
الجديرة بالذكر أنني كنت في منطقة جنوب الخرطوم ، وركبت سيارة
صالون ، بها عدد من ذوي اللحي - من جماعة الترابي ، أحدهم
خرج على الترابي وكفره بسبب بعض فتاويه ، وكان ذكياً ، لبقاً
فحاجهم في تكفير الرجل . فتدخلت وقلت له أنني لست من جماعة
الترابي ، لكن مسألة التكفير في المسائل الخلافية القابلة للبحث أمر
مرفوض ، وأن كثيراً مما نفترضه من البديهيات يحتاج إلى المزيد من
الدراسة والبحث ، وضربت له الأمثلة .. وكما قال أحدهم أنها المرة

الأولي التي يجد فيها من يتصدى له . طلبت انزالي من سيارتهم فسي أقرب الأماكن لمقصدي لكنهم اصرروا على توصيلي الى حيث أريد ! وقد كنت حينها في مشاوير خاصة بالنادي العلمي ، لحل مشكلة مياه الخرطوم متطوعا .

يستضيف بيت الشباب بعض المؤتمرات والفرق الرياضية وكان يقوم بدوره كمنتدى ثقافي للشباب ، مما يبعث الحيوية فيه ، وكنا شديدي الحرص على تحسين علاقتنا بالطباخين والعاملين المرافقين ، أما العمال المقيمين معنا فهم اصدقاءنا وزملائنا . وكانت لنا ثلاث أيام سعيدة هي أيام انعقاد مؤتمر المكفوفين وأصدقائهم ، وهكذا اتحت لنا الفرصة للحديث معهم عن مشاكلهم ونواذرهم ، واستمعنا لمغنيهم، وفوق كل ذلك أكلنا معهم مدة الثلاث أيام ، وعرفنا صحة المثل " من يأكل مع العميان ... " لكن يوسف عبد الفتاح كان لنا بالمرصاد ، فبعد مؤتمر العميان لم ير البيت النور .

مشكلة مياه الشرب في الخرطوم

كان قصير القائمة - الأستاذ محمد - يقيم معنا بالبيت عند حضوره للخرطوم . أعجبه حياته فقرر الانتقال للخرطوم والإقامة الدائمة معنا . كان يحب الغناء والطرب والغزل ، وسميناه : القصير الشرير . دائما يدندن متغنيا .

أنا في الحب حاتم

وفي الفلوس حازم

كان قصيرنا يحب العاملات في المكاتب ، واكثر منهم سائقات السيارات .

أخبرني الأستاذ محمد أن الشيخ عبد الجليل النزير الكاروري تعرض في خطبة الجمعة بمسجد جامعة الخرطوم لمشكلة مياه الشرب بالخرطوم . وكالعادة تتفاقم الأزمة في موسم الفيضان لإرتفاع نسبة

الطمي في مياه النيل ، وأن الشيخ إقترح عمل شبكة من الآبار الجوفية كحل دائم للمشكلة . وقد كانت عندي شبه دراسة منذ بداية التسعينيات ، مودعة لدى المجلس القومي للبحوث لحل المشكلة : ذهبت للشيخ ، وهو ليس كالتشيوخ التقليديين ، مستوى ذكائه مرتفع ، يهتم بالعلوم والبحوث والتجديد ، وفوق كل هذا مرنا وجادا .

أعطيته صورة من الدراسة وقام بتصويرها بأعداد كبيرة ، على أن تقام حلقة علمية ، وجهت الدعوة لكل من يهمه الأمر أو كان صاحب تخصص مرتبط بمواضيع مياه الشرب : مياه المدن ، مياه الخرطوم ، وزارة الصحة ، كليات الصحة ، كلية الهندسة جامعة الخرطوم ، كلية الجيولوجيا ... الخ

عقدت الجلسة العلمية بعد صلاة المغرب . المكان واسع وكل التجهيزات على أعلى مستوى بما في ذلك طاولات محملة بالفواكه والمأكولات والمشروبات ، وهو العائد المادي الوحيد للمدعوين ، الذين يتكبدون مشاق الحضور مساء . طلبوا مني عرض مختصر للمشروع وكل تفاصيله . وقبل أن أبدأ الشرح ، سأل أحدهم عن السيرة الذاتية للسيد المحاضر ، الذي يقف لإلقاء محاضرة في مجال هندسي متخصص لأصحاب الشأن .

فأجبتة :

لست أريد منكم شهادة ولا وظيفة أو توصية ، بل لدى موضوع محدد للعرض والنقاش ، ولا أهمية في ذلك للسيرة الذاتية . بعد إنتهاء الجلسة أخبرني أحد المهندسين بأن إجابتي هي أفضل رد ، وإلا انحرف النقاش عن الموضوع . وكان ملخص ماطرحتة على السادة الحاضرين المتخصصين في هذا الأمر هو :

نظريا :

* قاع النيل الأزرق مفروش بطبقات رملية ، تؤدي إلى تصفية المياه طبيعيا داخل الطبقات تحت السطح ، وهذا أمر معلوم للجميع ، وبدلا من سحب المياه العكرة التي لم تصفى بعد من أعلى السطح ، ينبغي سحب المياه من تحت السطح ، علما بأن مستوى المياه متساوى مع مياه المجرى أو بجواره وأن السحب بالطملمبات الدوارة التقليدية (طلمبات الطرد المركزي) زهيد التكاليف . يمكن إدخال المواسير بأية مقاسات مطلوبة تحت السطح سواء كان داخل المجرى أو بجواره ، سواء بالطريق التقليدية أو باستعمال المياه المضغوطة بقوة . وتفاصيل هذه الطريقة موضحة بالرسومات المرفقة بالبحث .

المحاذير :

- * احتمال تلوث المياه السطحية بمجرى النهر .
- * خط سير حركة المياه ، خاصة في موسم الفيضان ، من مجرى النيل لليابسة وليس العكس .
- * يمكن إختيار مواقع خالية من الصرف الصحي الجوفى .
- * عمل أبحاث ودراسات ميدانية تجريبية لتحديد مستوى التلوث .

قال أحدهم : احتمال أن تكون كمية المياه المسحوبة قليلة .
 رددت : إن إعادة الشحن Recharge فورية ، وحسب تجاربي إنه لا فرق يذكر بين السحب المباشر من مجرى النيل والسحب من الماسورة تحت السطح - داخل المجرى أو ملامسة له
 وحدث أن أنزلنا ماسورة تحت سطح الماء بمقاس بوصة وكان السحب بظلمبة ٤ × ٤ وكان الضخ عاديا .
 وحتى إذا كان صحيحا فيمكن علاج ذلك بإدخال ماسورة ٤ تحت السطح والسحب بظلمبة ٣ × ٣ . ولدينا بدائل لكل المحاذير والاحتمالات .

وعلق أحد كبار المهندسين :

ظللت مهتمة بمشكلة مياه شرب الخرطوم لأكثر من خمسة عشر عاما ، وقدمت كذا وكذا من الإقتراحات والدراسات لكني منذ الآن متنازل عن كل ما قدمته من إقتراحات وأؤيد ما قاله الإبن . حتى إذا لم ننجح بالطريقة الطبيعية التي ذكرها فيمكن دعمها صناعيا ، كعمل حواجز خرسانية وما إليه . ورأى رصد ميزانية غير محدودة فورا لعمل التجارب .

وقال أنهم اتفقوا حوالى مليار جنيه سوداني على دراسات مياه بورتسودان وكان نصيبها الفشل .

وبطبيعة الحال لا يحب أهل المهنة دخول غير المختصين مجالهم ، لإفترض أن هذه المسائل كان الواجب أن يقوموا بها بأنفسهم ، لكن قد تأتي التغيرات النوعية من آخرين ، وعليهم هم تحسين الأداء والعمل الروتيني ، وليس في ذلك حرج . لكن للأسف كثيرا ما تكون معارضة الإصلاحات من أهل التخصص أنفسهم . وكان تعليق أحد المهندسين في تفضيل هذه الآبار الجوفية - التي لا تخلو أيضا من التلوث - أن تكلفه هذه تعادل ١٥% من تكلفة مياه الآبار الجوفية. كان التأييد منطقيا وصدرت التوصيات :

* تبني الفكرة رسميا .

* تحديد موقع لعمل التجارب .

* رصد الأموال للتجارب والدراسات .

اقترحت عليهم قيام شركة ، يكون للنادي العلمي أسهم فيها ، لاستخراج المياه وبيعها للهيئة الخاصة بمياه المدن . لكن لم يجد اقتراحي التأييد اللازم .

كان صاحبي القصير مندهشا ، ومن تعليقاته :

لو كنت جبهجيا لأعطوك مفاتيح الكريسيديا بعد المحاضرة مباشرة ، التوصيات حبر على ورق . وكأنما يفترض أن أقوم أنا بهذه الأعمال

على حسابى الخاص ، وفشلت حتى وساطات الجبهجية فى تحريك العمل . والقول ما قاله الشرير . هكذا مات المشروع غير الجبهجي ، وضاعت مجهودات علمية كانت كفيلة إذا نجحت - بتوفير مياه الشرب للقرى والمدن المجاورة للنيل وبأقل التكاليف . والتعليق متروك للقارئ الكريم ، وكان ذلك فى عام ١٩٩٧ .

طلاق رجعي

فى إحدى باصات المواصلات الداخلية بالعاصمة والنسى قل أن نستعملها - صادفت سيدة تجلس الى جوارى ، تبدو فى أواسط العمر ونالت قسطا من التعليم . لا أنكر بالظبط كيف بدأ الحديث بيننا ، لكنها سرعان ما اندفعت للخوض فى طرح مشاكلها الشخصية ، شكت من زوجها المتكبر ، المتعجرف المتعطرس الذى صبرت عليه طويلا قبل أن تقرر الخلاص منه نهائيا بالطلاق ، الذى اراحها منه ومن تصرفاته وأفكاره الشوهاء . قالت :

لم أندم عليه ، ولم يستتكر أحد تصرفي ، بل تعجبوا من صبرى عليه طوال هذه السنين التى عشتها معه ، لكن لا بأس ، فأبناؤى كبروا ولن يحتاجوا إلا إلى فلسه . طلبت منها أمثلة على ما سمعته من عجرفته وإزدرائه للآخرين . فأجابت :

إذا انكسر كوب زجاج لا يترك الأمر يعدى كما يفعل كل الناس ، بل يسأل عن المكان الذى كان فيه ، إذا كان على النافذة فأى نافذة ، وإذا كان فى النافذة الشمالية فيقول إن الهواء يأتي من الشمال فأطاح بضلفة النافذة وكسرت الكوب ، أما إذا وضعته فى الجنوبية فإن حركة الضلفة لن تؤدي إلى سقوط الكوب على الأرض وهكذا . وهذا فى كل شئ . وهو دائما محظوظ يحفظ كل شئ ويعرف كل شئ هل كان يسئ معاملتك ؟

- أكثر من هذا إنه يعذبني بمحاضراته وإستجوابه هل يعاملك بقسوة ؟ -

- لا .. إنه غير مؤذي ، فقط يكتفي بالتقصي عن الأحداث التي تجرى فى البيت ويعلق عليها .
إن زوجك يتمتع بذكاء غير عادي ، لا يكف دماغه عن العمل ،
ولسوء حظه وشقائه أنه تزوجك إنت ، صغيرة العقل تكتسب التبأييد من أمثالها .

لأذت هي بالصمت مندهشة بينما واصلت أنا الحديث :
أنه رجل متميز ، أفسدت عليه حياته وأبنائه .
تبادلنا الحديث عن ضرورة العمل على جمع شمل الأسرة ،
والتعويض عما فات . وعند وصولي لمقصدي أخبرتها بأنتي مغادر للباص ، إلا أنها أصرت ألا أفعل .
وقالت :

كل من شكوت له كان يؤيد ما ذهبت إليه إلا أنت ، لكن سمعت قبل زواجي منه أنه كان مبرزا فى دراسته قبل تركها لوفاة والده ،
وإنصرافه للإشراف على أشقائه . سأرجعه من أجلك أيها الغريب ،
ويمكنك التأكد من ذلك - وأعطتني الاسم والعنوان . ما الذى دعاني للشكوى لك عن مشاكل الشخصية ؟ فليس من عادتي التحدث للأغراب . أتهتم بكل الناس ومشاكلهم هكذا ؟ ومن أين لك كل هذه المعرفة ؟

تحول الإندهاش من حالها إلى الإندهاش مني ، لعل هذا حال الإنسان المحظوظ الذي يجد الشخص المناسب فى الوقت المناسب .
أخيرا أخبرتها أن عمل آبائي وجدودي هو الإهتمام بمشاكل الآخرين والعمل على حلها . وهذا يشبه ما قاله لي قصاب فى المرة الوحيدة التي نذهب له فيها ، وكان يركز على فسألته :
- أشبه أحدا تعرفه ؟

لا ، لا أنت لا تشبه الناس .

- أنا إنسان عادي وأقل من العادي ، ملابسي عادية وحالي وظروفي أقل من العادي .

ليس ملابسك ، يمر على هنا كل أنواع الناس ، أنت لا تشبههم .
كان منفعلا بغير ما سبب ، ولم يسبق ذلك نقاش ولا تعارف . ثم
أضاف :

يوجد بك شئ غير عادي ، عيونك بها شئ غير عادي ، إنني أدرى
بالناس وأعرفهم . أهلك ملوك أو حكام ، هذا واضح ، أنت لا تشبه
الناس !!!

ودعته وانصرفت مندهشا من غرابة ما سمعت . حيث أنك وبدون
سابق معرفة قد تجد من يستشعر فيك الكثير .

نعم .. أبى وجدودي حتى الحسين وعلى بن أبى طالب كانوا حكاما
ومصلحين همهم حل مشاكل الآخرين وتذليل عقبات الحياة لهم ،
والعمل على إسعادهم .

الرجوع من الشيوعية

من الشخصيات غير العادية التي تعرفت بها فى شوارع الخرطوم،
الصديق جحا الذى كان يمشي ويتحدث بصوت عال - كما يفعل
المخمور - ولم يتغير هذا الوضع طول مدة تعارفنا . والملفت للنظر
فيه مستواه العالي فى إجادة اللغة العربية والإنجليزية . لم أكن أعرف
عنه شئ غير أن إمكاناته العلمية رفيعة المستوى . أجبرنى على
مجالسته لساعات طويلة وعلى مدى شهور إلا أنني لم أتمكن من
إضافة أى معلومة عنه . وبعد سنوات من فراقنا تجمعت لدى
معلومات عن صاحبي ، منها ما سمعته من شيوعي قديم رجع للإسلام
- إسلام الورع والزهد - عندما سألناه عن سبب تخليه عن الشيوعية
فقال ما معناه :

كنا نتدارس الفلسفة الماركسية الإلحادية ، ومعنا جحا ، خرج من الاجتماع ، وعند عودته سأله رئيس الجلسة عن سبب خروجه فأجاب جحا : ذهبت لتأدية الصلاة .

- صليت كيف ؟ ألسنت مقتنعا بما نقول ؟

إذا كان هذا الكلام صحيحا فمن الأفضل أن تعمل ما يبيض وجهك أمام ربك ولو قليلا !!!..
وأخذ كلام جحا يدق في رأسي حتى نفضت يدي من الماركسية وعدت للإسلام .

أما المهندس محبوب البدوي ، والد الصديق نادر ، فقد كان شيوعيا حتى آخر السبعينات - وفي مرة كنت مع الزميل نادر في شركة خاصة بهم في الخرطوم ، فسألته عن كثرة الآيات القرآنية المعلقة على الجدران ، وهل والده يعلم بذلك ؟ وإندهشت جدا عندما قال إن والده هو الذي أمر بها . وأخبرني عن قصة رجوع والده للإسلام وقال :

إنه ذهب للمشاركة في مؤتمر هندسي بجدة ومعه صديق سوداني ، وبعد إنتهاء المؤتمر طلب منه صديقه المرافقة للمدينة المنورة ، رفض - وبعد إلحاح على ألا يفترقا ، وافق على مرافقة زميله ولتكن سياحة . إلا أنه عند رؤيته المسجد النبوي أجش بالبكاء !! كان رجوعا دينيا قويا ، فقد كنت أعرفه ، وكثيرا ما أزوره بمنزله في العمارات ، إلا أن رأيه في كثير من السياسيين الإسلاميين لم يتغير وكان يقول عنهم : يحبون الحياة الناعمة والسيارات الفخمة والرحلات والسفر للخارج والاستمتاع بكل شئ مع لذة جمع الإسترليني والدولار .

ونذكر هنا ما قاله الأستاذ يس عمر الإمام في لقائه مع التلفزيون السوداني عندما سأله مقدم البرنامج عن سبب رجوعه من الشيوعية والإلتحاق بالتيار الإسلامي . تحدث عن العمال والسلطة في النظرية الماركسية الليبية ، وقارن ذلك بالسودان وأن السودان غير مؤهل

لإستيعاب مفاهيم الشيوعية . وتحدث عن السودان المسلم ، وقيام ثورة دينية قبل مائة عام فقط " مشيرا بذلك للمهدية " ، وأنه لكي تستولى على السلطة فى بلد كالسودان ، ينبغي أن تكون صاحب دعوة إسلامية.

وهكذا فإن سبب أوبته " السبب سياسي وليس ديني " كما قال بالنص على ما أذكر .

وفيما طرحناه مؤشر لفكر بعض الإسلاميين فى شأن قيام الثورة الدينية وإستراتيجياتها والإستيلاء على الحكم . فقد يكون من المفيد عمل الدراسات والتحليلات السياسية والاجتماعية والسيكولوجية ... عن الشيوعيين السابقين وخاصة من يلتحق بالركب الإسلامى ، السياسي منه أو الصوفى .

الفصل الثاني

(اتق شر من أحسنت إليه)

مثل موروث يستهدف محاولة مسح عمل الخير من الذاكرة وذلك للمصلحة الفردية المباشرة أو تغيير ملامح الذاكرة الشعبية بغرض تأكيد الآنا وحب الذات ، وكل تلك الصفات التي لا تضع حسابات للآخر .

وأذكر أننا دخلنا في نقاشات عديدة عن هذا المثل ، عن قائله وعن انه يدعو للسلبية وكراهية البشر .. والعوانية والإنعزالية . بما أن الإنسان أقرب للشر بطبعه ، فإن ذلك يستوجب الحذر والإحتياط في كل تعاملاتنا ، إلا أن عمل الخير غير الممسوح من الذاكرة يضعف هذه الاحتياطات من جانبيين :

أ - يكتشف - من تحسن إليه - وجود ثغرة في دفاعاتك الوقائية مثل : الرقة ، العاطفة والحنان وقد يسعى لاختراقها إذ عن له ذلك .
ب - قد تتصور أنت أنه مثلك ، ذاكرًا لما أوليته من إحسان ، فتطمئن إليه بعض الشيء . وهذا خطأ قد يكون خطيرا إذا دعمه الجانب الأول .

إن التصالح مع النفس والتعامل مع الآخرين من مفهوم أن تركيبة الإنسان أقرب للخير كما ذكرنا أعلاه ، له إيجابيات :
داخليا : العزم وبذل الجهد لمحاربة هذه النقيصة كجزء من الجهاد الأكبر .

خارجيا : أ - الاحتياط الدائم .

ب - مساعدة من يحاول العمل والمجاهدة للتغلب على نقائصه .

ج - بعض العذر له للمشاركة في العلة والنقيصة .

إن عمل الخير ليس غريبا عن السودانيين وجزيرتهم الاجتماعية ، إذ أن السودان يشبه الجزيرة المنعزلة - كما ذكر الخواجه ببغداد - فى هذا العالم . التركيبة الاجتماعية ، المميزات الشخصية ، النظام القبلى والعشائري ، وذلك حتى بداية عهد النميري . ولعل رياح التغيير الطبيعية والصناعية التى هبت على المجتمع السوداني عصفت باستقراره الاجتماعي ، وكمثال على ذلك نشير إلى العلاقات الزوجية خاصة فى الأرياف .

تكاد تكون كل قبيلة الرجال على قلب واحد وكذلك قبيلة النساء - وهكذا ليس بمستغرب أن يتم عقد قران ٧٠ - ٨٠ زوجة فى زواج جماعي واحد فى قرية صغيرة . كما أنه حدث فعلا القضاء على العزوبية للرجال والعنوسة للنساء بنسبة ١٠٠ % . اجتمعت عوامل عديدة لتحقيق حياة زوجية مستقرة ، ولا نقول سعيدة منها :

الإجماع على اضطهاد المرأة وسلب حقوقها وإنسانيتها . للرجال متفاسات شرعية للعلاقات الاجتماعية والجنسية خارج بيت الزوجية.

وجود قيادات قوية لفرض الاستقرار والحقوق والنظام والعمل حسب الأعراف والتقاليد السادة .

وهكذا تم التوازن الاجتماعي حسب المعطيات آنذاك . فى عهد النميري (١٩٦٩ - ١٩٨٥) وماتلاه حدثت تغيرات كبرى فى التعليم - توزيع الثروة - الإدارة - التنمية . ومن ذلك :

أ - إنتشار التعليم المنظم للرجال والنساء :
ب - أدت التنمية إلى مفاهيم وقيم جديدة فى الملكية الخاصة والإستهلاك وقيمة رأس المال ونفوذه ، بالإضافة إلى التباين فى

توزيع الثروة ، وقد يكون تباينا مخلا للتوازن في معظم الأحيان ، ومازال معدل الخلل في إزدياد .

ج - توجيه ضربة مباشرة للنظام الإداري والقضائي القبلي الموروث " حل الإدارة الأهلية " . كل ذلك بتخلل القوى التقليدية المشرفة على النظام الإجتماعي والإستقرار والأمن . وجد الأفراد أنفسهم ، بدون إعداد ولا تدرج ، في مواجهة مشاكل حياتية أبعد ما يكونوا عن فهمها والتعامل معها ، وافتقدوا رجالا مؤهلين مدربين ومنظمين . وألقى ذلك بظلال كثيفة على المؤسسة الزوجية يتبين في :

(١) انخفاض معدلات الزواج .

(٢) ارتفاع معدلات الطلاق .

واعرف من تسبب في خراب بيت إبنته ، ومواجهتها له بأن زوجها لم يخطئ لكنها هي وأبوها وأخوتها إعتدوا عليه .

وما كان لذلك أن يحدث في الماضي :

* لا يجروء مثل هذا الأب على تلك التصرفات في وجود رعاية وإدارة قوية في المجتمع - الشيوخ - وإلا سيواجه بعنف لا يثبت أمامه .

* المرأة دائما على خطأ ، عرفوا بالتجارب والخبرة أن مصلحة المرأة العليا تقتضي ذلك .

* لولا جهل وعنت مثل هذا الأب لتبصر الأمر بروية حفاظا على مصلحة إبنته على أقل تقدير .

حدثت الزوجة عن الزوج وأهميته وعدم أهميه الأخوان ، ووضع الأبناء ، واحتمالات تدخلهم لاحقا لمصلحة الأصلح من الأبوين ، وأن لا تسعى للطلاق إلا إذا كان يتهدها خطر جنائي حقيقي من قبل الزوج . وله أن يتخلى عنها إذا تكالبت عليه مع أهلها عدائيا .

أما بعد الطلاق خاصة الثالثة ، مع وجود أبناء :

* فليس من المصلحة السعى للإضرار بالزواج السابق .

- * نسعى لاستقراره في عمله ليوفر نفقة أبنائه .
- * أن تكون العلاقة مستمرة بقدر ما يخدم مصلحة الأبناء وبقدر ما يمكنه التشاور مع والدتهم .
- * ليس لنا مصلحة في إثارة مشاكل مع الطليق وأسرته .
- وهكذا يمكن تجاوز مشاكل شديدة التعقيد ، وذلك لمصلحة الأطفال على الأقل .

الفصل الثالث

وثيقة حقوق الطفل

وثيقة الطفل التي تم التصديق عليها في هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٥٩ تنص على ما يلي :

١ - ينبغي تأمين ظروف النمو الصحي والطبيعي للطفل ، سواء كان هذا النمو عقليا ، أخلاقيا أو اجتماعيا . وأن يتحقق له هذا النمو في جو من الحرية والاحترام لكرامته الشخصية .

ب- ينبغي أن نضمن للطفل حقه في الاستفادة من خبرات التأمين الاجتماعي . وللطفل حتى قبل ميلاده كذلك الحق في أن يشب وينمو في ظروف صحية مناسبة . وأن له الحق في التغذية المناسبة والسكن المناسب ، وفي الرعاية الطبية المجانية .

ج- للطفل الحق في أن يتلقى تربية تزوده بالحد الأدنى من الثقافة والتعليم وتمكنه كذلك من تنمية قدراته وإستقلاليته في التفكير ، وتسمح له أن يصبح عضوا نافعا في مجتمعه . ومثل هذا التعليم ينبغي أن يكون مجانيا .

د - للطفل في كل الأحوال الأفضلية للحصول على الحماية والمساعدة .

هـ- يجب حماية الطفل من كل أشكال الإهمال والاستغلال والانتهاك ، ولا يسمح في أى ظرف من الظروف أن يتم تشغيل الطفل أو استخدامه بهدف الربح المادي إذا كان هذا العمل ضارا بصحته أو بتعليمه أو يعرقل نموه . (عن 1998 BALCEREK) .

يمكن القول أن عالم الراشدين لم يقبل بشكل كاف ، ولم يعترف أن الطفل إنسان له حقوق محددة . وأن مشكلة الأطفال مازالت تبحث من وجهه نظر حاجات الآباء ، ويعامل الطفل أحيانا على أنه " دميته الصغيرة " أو أنه دعم لهم ، أو مجرد يد عاملة ، على أنه ضمان

لتأمين حياة أبويه في الكبر . وما زال الكبار يتناسون في أغلب الأحيان أن للطفل الحق في أن يعيش طفولته وأن يتمتع بها . وأن له الحق أن يكون محبوبا كما هو وليس كما يريد الآخرون أن يكون .

أصدقائي الصغار

من النادر قيام علاقات صداقة حقيقية بين عالم الكبار والصغار . غير أنني ومازلت أتمتع بصداقات قوية مع الأطفال . كانت لي علاقات عديدة مع أبناء وبنات بعض الأهل والأصدقاء والجيران ، وقد كنا نقضي معظم الوقت - بعد ساعات العمل والدراسة - تحت ظلال الأشجار في اللعب والضحك والسمر . وبرغم فارق السن كنا نتأرجح بالمرجحات على الأشجار ، ونلعب الحبل - فردي ، ثنائي وثلاثي - وقد اكتسبت من ذلك خبرة ومراس عال . كنا نتناول الوجبات شراكة معهم ، عينا ونقدا . كنت أحبهم ، أسعد أوقاتي معهم ، وهم يبادلونني نفس الشعور . وكثيرا ما يبدي بعض أصدقائي الصغار رغبتهم في إحضار حاجياتهم والتحول للسكن الدائم معي ، ودائما يجد الأهل مشقة في إرجاع أبنائهم ، وإقناعهم بالعودة للمنزل .

بناء صداقة مع الأطفال يستوجب الصدق الكامل في الأقوال والأفعال والمشاعر والاهتمام بالطفل واهتماماته ، وأنه ليس من أدوات الترفيه . ينظر بعض الآباء للعب الأطفال وهواياتهم على أنها مضيعة للوقت ، وممارستها لا تكون إلا على حساب العمل الجاد والتحصيل الأكاديمي . ولهذا الأسلوب التربوي سلبيات ، كما وأن ممارسة الأطفال والشباب لهوايتهم خلال ما يسمى بالوقت الحر ، أو أوقات الفراغ ، وحسب تصنيف دومازيه DUMAZEDIER تؤدي إلى ثلاث تأثيرات هامة : الإسترخاء - التسلية - تنمية الشخصية

أولا : تخلصهم من التعب وتعيد إليهم توازنهم الجسدي والنفسي الذي قد يخل نتيجة لتوترات الحياة .

ثانيا : تبعدهم عن الملل والروتين بما تتضمنه من عناصر التعبير والمتعة .

ثالثا : تنمي شخصياتهم وتحقق لهم الإشباع الذاتي الذي لا تحققه الحياة التي يغلب عليها طابع الاحباط والسكون والجدية .

ولأهمية الوقت الحر في النمو الجسدي والاجتماعي والنفسي للأطفال ، فقد أصبح علما مهما من فروع علم الاجتماع . كما أن بعض الباحثين توصلوا إلى أن الأطفال والشباب الذين لا تتوفر لهم فرصا لقضاء الوقت الحر ، يمكن أن يكونوا خطرا على المجتمع . لأنهم أكثر عرضه للانحراف ، والإنضمام للعصابات ، وتعاطي المخدرات واللجوء للعنف .

كنت أكثر التصاقا بالأطفال ، معرفة برغباتهم ، مشاعرهم ومشاكلهم . حيث كانوا يخبرونني بكل شيء حتى ما يخفونه عن أهاليهم ، منها المشاكل المزعجة التي نعالجها بتكتم . وبنفس إهملي بهم كانوا يهتمون بأمرى كثيرا . يتابعون كل أوضاعى ، حتى قبل زواجى ، كانوا يدركون ويقدر أعمارهم ضرورة الزواج ، فمنهم من تطوع للخطوبة لى . وإن كانت الخطيبة تعرف بأمر فلان . وكانت الطفلة نازك طرفا فى ذلك :

بالقرب منا تسكن شابة جميلة ، ترتدى ملابس جذابة ملفتة للنظر خاصة لنازك التى كانت كثيرا ما تعلق على ملابسها ، ثم تطور تعليقها لشخصها وجمالها ، ومن شدة إعجابها ، جعلتها خطيبتي . شرحت لنازك بأن المرأة متزوجة ولا يمكن خطوبة امرأة متزوجة . إلا أنها لم تهتم بذلك وأصبح شغلها الشاغل أمر الخطيبة وأخبارها . فجأة استدركت أنى لا أزور خطيبتي ، واستمرت على هذا الوضع أياما .

ذات يوم جاءتني وطلبت مني زيارة الخطيبة الآن . حاولت إثنائها عن ذلك بحجة أنني غير مستعد ، على أن نقوم بذلك يوم آخر . وكنت أمل أن تنسى طلبها ، لكنها في الوقت المحدد جاءت في أبرد ما يكون ، وأمرتني بالذهاب معها للخطيبة . وحاولت التسويف ، لكنها حسمت الأمر .

- أأنت تكذب !!

ولم يكن بد من القيام بتلك الزيارة المحرجة . كما هو متوقع فقد اندهشت الشابة لهذه الزيارة الغريبة . أكرمت وفادتنا . أخبرتها بأن نازك صاحبة الفكرة ، فسألتها :

- أتعرفيني يا نازك .

- نعم أعرفك

- بتعرفني اسمي ؟

- اسمك ... اسمك ... اسمك : خطيبة كمال (ولم تكن نازك تعرف لها إسما غير هذه الصفة) .

- لكنى متزوجة يا نازك .

وليس لإجابتها أى أهمية عند نازك . التى زارت أخيرا خطيبة صديقها .

عن مدارك الأطفال

يخطئ معظم الآباء بظنهم معرفتهم الجيدة لأبنائهم ، قد يكون العكس ، فإن الأطفال يتمتعون بموهبة أو حاسة لمعرفة من يكبرونهم ، وقد يخدع الكبير نظيره ، لكنه لا يستطيع ذلك مع الأطفال . قد يكون ذلك لخطأ الكبير المتلون فى تقييمه للصغار ، بإفترض عدم قدرتهم على التمييز ، مما يجعله يتحلل من بعض ضوابطه التى يمارسها فى تعامله مع الكبار ، ويكون حكمهم بالإجماع على مثل هذا الشخص

وبموضوعية قد تفوت على الآخرين وبنفس القدر تقييمهم لمن يحبهم حقيقة ، ومدى مصداقيته .

الأخطار المحدقة بالطفل

أ- التليفزيون وتأثيره :

إن التلّافاز من أهم الأشياء التي بها تأثير مباشر في تكوين الطفل ، إضافة لنظام التربية والبيئة الاجتماعية المحيطة . لذلك نقف وقفة سريعة عند تأثيره السلبي على الأطفال ، في ظل ما نواجهه من غزو ثقافي وإعلامي أجنبي ، الذي هو أخطر نتائج النظام العالمي الحالي . ومن الطبيعي أن يكون له أبعاد جديدة تؤثر في ثقافتنا العربية والبنية الاجتماعية . مع هذا التطور السريع والانفتاح الاقتصادي الذي تقوم به الدول العربية ، أصبح كل منزل وكل أسرة تمتلك جهازا للتلفزيون، وفي حالات عديدة أكثر من واحد . وأخيرا دخلت السباق أجهزة الاستقبال الفضائي الذي يتيح للأسرة التمتع بكل القنوات العالمية ، الأمر الذي قد يكون خطرا داهما على تربية الأطفال ونشأتهم .

وبرغم هذه الخطورة إلا أن هناك غيابا إعلاميا عربيا موجهها للاهتمام بالطفل . ومن المفيد هنا أن نشير إلى دراسة إجراها المجلس العربي للطفولة والتنمية والتي جاء فيها :
أن هناك تفاوتاً بين الدول العربية التي تقوم بإنتاج برامج تليفزيونية للأطفال كما أظهرت الدراسة أيضا :

أولا : أن معظم البرامج الموجهة للأطفال في التلفزيونات العربية والأجنبية ، وبشكل خاص الرسوم المتحركة التي إعتبرتها معظم الدراسات ، الأكثر جاذبية للأطفال.

ثانيا : ان البرامج المحلية بغالبيتها الساحقة ، لم تعتمد القصة والحكاية أو المسلسل .

ثالثا : ليس هناك تبادل لبرامج الأطفال بين الدول العربية ، ولعل السبب يعود إلى أن برامج الأطفال في غالبيتها ذات صيغة مناسبة ومحلية ، بلهجتها وأشخاصها .

وبشكل موجز يمكن تحديد التأثيرات السلبية للمشاهدة التليفزيونية المستمرة للطفل في الآتي :

١ / إن حاجات الأطفال الصغار مختلفة ، فتمو الطفل يتطلب فرصا لتحقيق علاقات أسرية أساسية ، وبذلك يمكنهم فهم أنفسهم ، والمشاهدة التليفزيونية - المفرطة - تقلل في هذه الفرص .

٢ / تساعد التجربة التليفزيونية على تبعية الأطفال ، في حين يحتاجون إلى تنمية قدراتهم على التوجيه الذاتي حتى يتمكنوا من تحرير أنفسهم .

٣ / تأثيرات الانكماش الواسع في الوقت الحر بين جيل الأطفال الذين شبوا مع التليفزيون ، فإن عدم فهم أهمية وقت الفراغ في حياة الطفل سيفضي به إلى البحث عن علاقات الاعتماد المتزايد ، أى حالة اعتماد داخلي صامت ، في الوقت الذى تمتلئ فيه حياته بالبرامج التى ينسج خيوطها الكبار على الشاشة .

٤ / يحتاج الأطفال إلى إكتشاف نواحي القوة والضعف الخاصة بهم لتحقيق رغباتهم كراشدين في العمل واللعب على حد سواء . لكن المشاهدة التليفزيونية لا تفضي إلى هذه الإكتشافات . فهي في الواقع تحد من إدماج الأطفال في تلك الأنشطة الواقعية التى قد تتيح لقدراتهم فرصة حقيقية للإختيار .

ب- العنف ضد الطفل :

كثيرا ما يتعرض الطفل للعنف والإضطهاد المباشر من المجتمع ، لكنهم في إطار الأسرة أكثر الفئات تعرضا للعنف الموجه من الأبوين . وفي مجتمعاتنا الشرقية يعتبر عنف الآباء السمة العامة ، ويفسر على أنه شكل من أشكال التربية تهدف إلى تهذيب الطفل ومنعه من إرتكاب الأخطاء حتى يكون مستقبلا صورة طبق الأصل من والديه . وهذا مجال بحث آخر . والجدير بالذكر أنه غالبا ما يتعرض الطفل للعنف بأخطاء من الوالدين وحسب حالتهم النفسية في غياب التوعية والحوار مع الطفل . ومما ذكره علماء النفس عن حالة الوالدين الذين يمارسون الاضطهاد ضد أبنائهم :

١- وجود إضطرابات عصبية مختلفة مثل : إنخفاض الضبط الانفعالي ، اضطرابات الشخصية المعادي للمجتمع ، إضافة لمحدودية الذخيرة اللفظية وربطها بفاعليات التفكير ، الشيء الذي يحد من قدرتهم على التواصل الفعال مع الطفل ، ويتسمون كذلك بالفهم السطحي لسلوك أطفالهم مع نقص القدرة على اتباع استراتيجيات مناسبة للتعامل مع الطفل (Starowic 7, 1992)

٢- عادة لا يرون الصفات الإيجابية للطفل ، ويركزون على صفاته السلبية . إضافة للتوقعات غير المناسبة التي يرحوها الأهل من أطفالهم مما يدل على ضحالة معرفتهم فيما يخص موضوع تطور الطفل ونموه ، وعلى إنخفاض مهاراتهم التربوية .

ومن العوامل المؤثرة في العنف ضد الطفل :

أ - سهولة دفع الأهل إلى الإستجابة العنيفة .

ب- القناعة المتصلبة حول ضرورة إبقاء السلطة المطلقة للأهل على أبنائهم.

ج- شدة الصراعات الزوجية والأسرية .

د - قسوة عوامل الضغط الخارجي .

والجمع التراكمي لهذه الظروف يشير إلى احتمال حدوث أشكال متطرفة من العقاب البدني ضد الطفل .

ج- الاستغلال الجنسي للأطفال :

من أسوأ أشكال الاضطهاد التي تمارس بحق للطفل ما يعرف بالاستغلال الجنسي للطفل Child sexual abuse ، والذي يمكن تعريفه كما عرفته منظمة الصحة العالمية أنه " استخدام الطفل للحصول على اللذة الجنسية للراشدين " . كما أنه يحدد بأنه " دفع الطفل إلى فعاليات جنسية لا يعي طبيعتها بوضوح وهي تنتهك القواعد الأخلاقية المرتبطة بالأدوار المجتمعية الطبيعية " .

وبرغم انتشار هذه الظاهرة التي يتعرض لها عدد كبير من الأطفال، إلا أن الإهتمام بها لم يأخذ حجماً يضاهي فداحة تأثيرها في نفسية الطفل . ومن الواضح أن هناك ازدواجاً في ردود أفعال الآباء في ذلك . فمثلاً إذا تم التحرش ببنت بالغة يكون رد الفعل أعنف من حالة الطفل . وهذا يعكس ضحالة التفكير والوعي وإدراك سيكولوجية الأطفال ، حيث أن الطفل وإن تناسى الحادثة إلا أن التأثير يتضح في أفعاله ومواقفه المستقبلية . ونسبة للستار الأبوي على حالات التحرش الجنسي بأبنائهم ولأسباب أخرى لا توجد إحصائيات أو سجلات موثقة في هذا الجانب . أما فيما يخص الأبحاث المجراة في البلدان العربية فإنها - مع قلنتها - تدل بوضوح على وجود مشكلة معاملة الأطفال والعدوان الجسدي والجنسي ضدهم في البيئة العربية ، حيث دلت على أن الصبيان يقعون على الأغلب ضحايا الاستغلال الجنسي من قبل راشدين غرباء ، وأكبر منهم سناً ، أكثر مما تتعرض البنات لذلك ، وأن الصبي الذي يتعرض لمثل هذه التجربة ، لا يكون عادة الضحية الوحيدة للمعتدي حيث هنالك الكثير من الحوادث التي لم يبلغ عنها وتظل طي الكتمان . وعليه فإن تقدير مدى انتشار هذه الظاهرة يعتبر أمراً منتهى الصعوبة .

ومن نتائج الاستغلال الجنسي والعنف ضد الأطفال ، بالإضافة
للكدمات والإصابات البدنية فهناك آثار آجلة للعدوان منها :
* آثار انفعالية ومعرفية واجتماعية ، تظهر لدى عدد غير قليل من
ضحايا العنف .
* حالات من القلق والاكتئاب وضعف القدرة على الضبط
الإنفعالي .
* عادة ما يكون هؤلاء الأفراد في علاقاتهم بالآخرين قليلو الثقة ،
وغالبا ما يتصرفون بشكل عدواني مع أقرانهم ومع أسرهم في حياتهم
الراشدة .

الباب الثالث

الفكرة وأحكام الردة

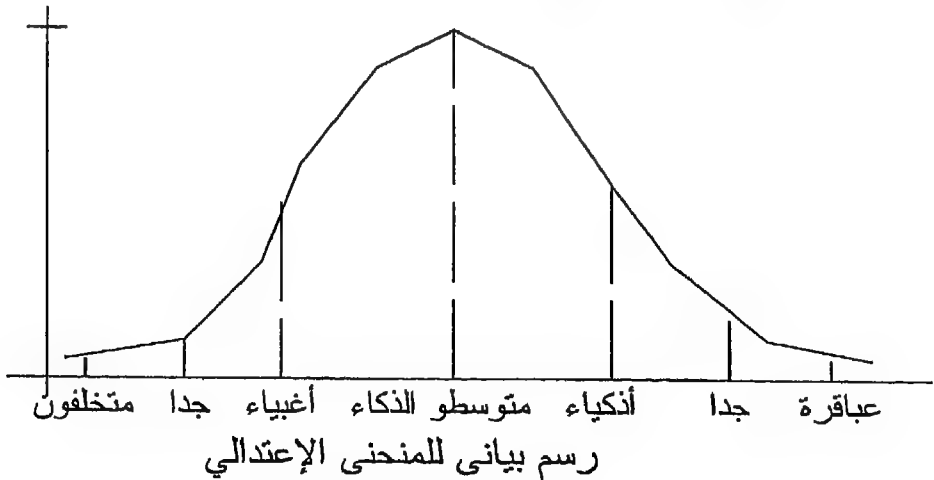
تأسيس

يمكن القول بأن المحصلة العملية أو المردود الفعلي للقوى العقلية تتأثر بالعوامل الخارجية بطريقة مباشرة . فكم من عقليات متميزة أهدرت في الدول والمجتمعات المختلفة . وما كان لعباقرة أوروبا تحقيق شئ يذكر لو أنهم عاشوا في مجاهل أفريقيا مثلا . لكن وعلى كل حال فإن الجوهرة أو جذوة النار التي خصصت لكل فرد تبقى حافظة لكيوننتها : تضعف وتخبو بالإهمال ، تنمو وتشتعل بالتعهد والرعاية .

حتى نهايات القرن العشرين يعتبر الذكاء مثله والموروثات والمواهب كالجمال ، اللون ، القوى البدنية ... الخ مع مالها من آثار قوية مباشرة في حياة الناس وعلاقتهم ومكاسبهم و ... الخ ، ليس للإنسان يد فيها وليست من كسبه ولا من كسب أسلافه ولا يفترض أن تعد مما يفخر به الأفراد .

التوزيع الطبيعي للذكاء

بافتراض أن توزيع الذكاء في المجتمع الإنساني يخضع للتوزيع الطبيعي الإحصائي - وهو أقرب ما يكون للواقع .



من هذا الرسم البياني يمكن استنتاج أن ٥ % من أفراد المجتمع دون الوسط ، ٥ % منهم فوق الوسط ، ١٠ % أكثر من ٨٠ % ذكاء ، ١٠ % أقل من ٢٠ % ذكاء . وبما أن متوسطي الذكاء - نسبة ٩٠ % - يشكلون الأكثرية المطلقة من المجتمع الإنساني ، مما يؤهلهم لصبغ الحياة بطابعهم الخاص ، وتشكيل المجتمعات حسبما يخدم مصالحهم وأهدافهم ، فهم أكثرية منسجمة في مواجهة أقليات على طرفي نقيض منهم : كبار المفكرين ، الفلاسفة ، العلماء ، المصلحين ، الصوفية .

إن ما يميز هؤلاء الأقليات أن تطلعاتهم وجهودهم ليست لإسعاد أنفسهم ، إنما لإقحام المجهول ، ريادة المسالك وتعبيدها . وكم يلاقي هؤلاء من جهد وعناء وتضحيات لتطوير الحياة وإصلاحها ، مما يخدم مصالح الغالبية - الـ ٩٠ % متوسطو الذكاء .

العلاقات بين الفئات :

يرى متوسطو الذكاء ذلك التشابه وتلك الصفات المشتركة بين طرفي النقيض - الشرائح العليا والدنيا . ومن تلك الصفات :
عدم الاهتمام بالمصالح الشخصية
عدم التكالب والمنافسة فيما هم فيه
عدم الاهتمام بالمظهر العام والسلوك الاجتماعي العام
قد لا تستطيع الشرائح الدنيا ، ولا ندرك المصلحة في هذه الاهتمامات .

أما الشرائح الأعلى فلإنها مختلفة ومتميزة عن القطيع ، فقيمها ذاتية وليست مكتسبة ، ولا تزيدها هذه الشكليات ولا تنقصها ولا يهتمها تقييم الآخرين .

ملاحظات :

- * يستفيد الأدنى من الأعلى ويرتاح معه ، والعكس .
- * قد يؤدي الشعور بالدونية إلى إشعال نار الغيرة والحسد .

* قد يؤدي ذلك إلى المكائدات ، التجريح ومحاولة نفي صفة العلوية .

* قد يتناسب رهافة الشعور والإحساس طرديا مع مستوى الذكاء .
 * قد تغطي التربية والسلوك الحسن والنفوس الراضية والسعي لمحاربة السلبيات الشخصية بعض معييات تدني الدرجات .
 * قد لا يدرك الأدنى ما يسببه للأعلى من ألم وضجر .
 * على الأعلى الاحتمال برضى ومعرفة وتسامح مكثفيا بنصيبه من العلوية .

* ما يراه الأعلى بداهة ويدركه ببساطة قد يستعصى على الآخرين وقد يرفضونه .

ما بين مستوى الذكاء ومستوى السعادة :

مما تقدم يمكن القول بأن لمتوسط الذكاء فرصا أكبر لتحقيق مستويات أعلى من السعادة مقارنة بالشرائح العليا والدنيا . فى حين تسعى غالبية المجتمع - متوسطو الذكاء - لتحقيق مستوى سعادة مرتفع متوسطة بطموحات مشروعة وسلوك عقلاني مقبول - يفشل الآخرون لأسباب منها :

* لعدم إهتمام بمصالحهم وموجبات سعادتهم .
 * فشل فى تقييم واقع المجتمع وتعامله المادي والدوني .
 * تفاعلات المجتمع السلبية مع الشرائح المحسودة والمنبوذة باعتبارها نشار ، وما ينالهم من خصومات من ومن مكائدات ومنغصات .

محمود وقضايا الشرق الأوسط

محمود محمد طه ، من الأساتذة المرموقين فى جامعة قاريونس :
 البروفسير فى القانون الدولي ، السوري الجنسية ، وزير الخارجية الأسبق فى حكومة شقيقه الشكلي . وهذه المعلومات من تلميذه

النقيب الذي قام بمهمة التعارف بيننا ، أبو عبيده الطويل ، والذي كان يغضب لهذا الاسم حتى ذكرناه بأن الله سبحانه وتعالى قد امتن على أحد عباده بأن زاده بسطة في العلم والجسم .

بروفيسور الششكلي

رجل كباره ، واسع الإطلاع والاهتمام بالشئون السياسية والفكرية ، شجاع ، حسن العشرة والمعاملة خاصة مع السودانيين الذين له عندهم مودة ومعزة خاصة .

يروى أنه ذهب من بنغازي إلى طرابلس للشماتة فيمن أطاح بنظام حكمهم ، وقد إلتجأ إلى ليبيا بعد أن دارت عليه الدائرة ، إقتحم غرفته وقال : دواره ، دواره (والأصبع يشير ويلف في اتجاه الساعة) .. ثم كر راجعا .

سريعا توطت العلاقة بيننا ، وصرت أزوره بانتظام في مكتبه حسب جدولته وتواجده ، نتحدث في شتى المواضيع العامة والخاصة ، الفكرية والأدبية والسياسية . وبمناسبة النقاش حول مبادرة السادات السلمية مع إسرائيل حدثته عن السياسي السوداني محمود محمد طه وكتابه " مشكلة الشرق الأوسط " الصادر في العام ١٩٦٧ م . فطلب مني نسخة من الكتاب ، وتمكنت من توفيرها له . ومما جاء في الكتاب :

- تحليله وانتقاده للإنقلابات العسكرية ونظم الحكم العسكري .
- الدعوى للديمقراطية والإشتراكية ، وأن الإسلام في أصوله ورسائله السامية هو الوحيد الذي يمكن أن يحقق ذلك .
- إسرائيل صديق في ثياب عدو لإيقاظ المسلمين من ثباتهم .
- وإن الاعتراف دفعة واحدة بإسرائيل هو أفضل من الاعتراف على دفعات ، وأن ذلك من مصلحة العرب .

• على الحكام العرب القيام بشئون أنفسهم وأن لا يفوضوا الروس للنطق باسمهم ، إذ أنهم يتاجرون بقضايا العرب .

كما أن من أهم ما تناوله محمود محمد طه فى كتابه هو ذلك النقد العقلاني المركز لعبد الناصر ، مدعوماً بالنصوص من خطبه وأحاديثه والأحداث والتعليقات . وقد انصب نقده على فكر وسياسات عبد الناصر ، وتأميمه قناة السويس ، وخطبه الماتيهة التى قال عنها محمود أنها من أسباب هزيمة ١٩٦٧م ، وإرتماؤه فى أحضان الشيوعية ودعوته للقومية العربية ومناصبته العداء للمعسكر الغربى .

وعلى ما أذكر فإن آخر ما قاله عن عبد الناصر :

لقد آن الأوان لذهاب عبد الناصر .

فليذهب عبد الناصر .

بارك الله لنا وله فى ذهابه .

لقد كان حسن النوايا ، لكن حسن النوايا وحده لا يكفى لاسعاد الشعوب فلا بد من دقة الفكر . ومتانة الخلق ...

ذهبت لبروفسر الششكى الساعة العاشرة من صباح الاثنين التالى ، وهو شديد الانضباط والالتزام ، وكان كتاب محمود طع على الطاولة تحت أنفه ، كان شديد الإنفعال ، وأول تعليق له :

ما كنت أتصور وجود مثل هذه العقلية الجبارة فى الوطن العربى ، ولو طبع هذا الكتاب فى أى بلد غير السودان لأثار ضجة هائلة .

وقال إنه كان يتساءل عن المهندس والعقل المدبر وراء السادات .

لابد أنه هذا محمود . وشخص بهذه الحيوية الفكرية لا يقف مكتوف الأيدي . لابد أنه كاتب السادات وأقنعه . كما أن السادات أحياناً يستعمل نفس مفرداته - العقد النفسية .

أخبرته أن الدين هو مركز اهتمامات محمود وأن الكثيرين يكفرونه ، لكن ذلك لم يثنى برفسير الششكى من الطلب والالاحاح على مده بكل مؤلفات محمود ، حتى الدينية المتطرفة - لكنى لم أجازف بذلك .

من طرق وأساليب محمود

فى أواخر الستينات كنا نواظب على حضور محاضرات محمود لما فيها من فكر ومنهج ، وبعد المحاضرة كنا نواصل النقاش حتى فى الباصات وكلنا وقوف - شماعه - وهو معنا بملايس بسيطة . وكنا كثيرى الذهاب لمنزله المتواضع بالثورة فهو كريم فاضل وحسن العشرة . كما أن اسم والدى كان يفتح لنا تعاملات خاصة (فهو زعيم قبيلة مرموق عند البعض ، وحاكم عادل ومصلح اجتماعي عند آخرين، وولى من الصالحين عند الكثيرين) .

أذكر فى ذلك الزمان الإعلان عن مناظرة بين محمود محمد طه وعطية محمد سعيد أحد شبان الإخوان المسلمين المشهورين ، وأصبحت لفترة حدثا يترقبه الناس .. لكنها للأسف ألغيت ، وجاء فى الأسباب الغائها أن جماعة الإخوان اشترطوا على محمود تكوين لجنة محايدة للحكم والفصل بين المتناظرين ، مع التزامه المسبق بقرار اللجنة . وقد رفض محمود شروط اللجنة الملزمة . ويقال مما جاء فى تبريره للرفض : ما أهون فكر عطية على عطية ، إذا قال له الناس اترك دينك وفكرك ، تركهما . وإذا إتبع المعصوم هذا المنهج لتخلي عن الدعوة .

وهذا الرد من محمود أشبه بمنهج الجمهوريين العقلاني .. والإستقزازي أحيانا .

وضع محمود كتاب الرد على مصطفى محمود ، واذكر رده على ما ذكره بما أن مصطفى محمود بأن (الإنسان يموت بسبب أو بلا سبب) ، أنه بما أن مصطفى محمود طيب فقد كان الأجدر به أن يقول : (يموت الإنسان بسبب نعلمه أو نجهله) .

محاكم الردة

تجدر الإشارة إلى الشكوى المرفوعة للمحكمة الشرعية فى القضية رقم ٣٥ - ١ - ١٩٦٨ من الأمين داود وحسين محمد زكي ضد محمود محمد طه ، والتي أصدرت حكما غيابيا بأن محمود محمد طه مرتد عن الإسلام . لم ينفذ الحكم أواخر العهد الديمقراطي وقبيل انقلاب النميري ، لكن تلتها حملة إعلامية شملت بعض الدول الإسلامية بما فى ذلك فتوى من الأزهر بأن كتب محمود تحوي كفرا صريحا لا يصح السكوت عليه .

عندما استلم النميري السلطة ، ذهبت لمحمود بمنزله ، ولدهشتي وإستتكري الشديدين وجدته مؤيدا للانقلاب وتجاوزنا فقال :
= إن الله أراد بالسودان خيرا بإنقاذه من الدستور الإسلامي المزيف والطائفية .

- والديمقراطية التي تتادي بها !!؟؟
- = الطائفية أسوأ من الحكم العسكري .
- النظام العسكري لا مبدأ له ولا مستقبل .
- = إنه يحكم بأوامر مؤقتة ولا يضع الدستور .
- وإذا وضع دستوراً ؟؟
- = سنعارضه .

فى سبتمبر عام ١٩٨٣ أجاز النميري ما سماه محمود - الدستور الإسلامي المزيف - وأعلن محمود معارضته ورفضه لقوانين سبتمبر ومن ذلك :

- أ - فى ٢٥ ديسمبر ١٩٨٤ أصدر الجمهوريون بيانهم والذي أدى إلى إعتقال محمود ، وقد جاء فيه :
- * نطالب بإلغاء قوانين سبتمبر لتشويهها الإسلام وإذلالها الشعب وتهديدها للوحدة الوطنية .
- * نطالب بحقن الدماء فى الجنوب واللجوء إلى الحل السياسي .

* نطالب باتاحة كل فرص التوعية والتربية لهذا الشعب .
ب- فى يوم الاثنين ١٧ / ١ / ١٩٨٥ أمام المحكمة قال محمود كلمته :

" لقد أعلنت رأيي مرارا على قوانين سبتمبر ١٩٨٣ م من أن أنها مخالفة للشريعة الإسلامية والإسلام ، وأكثر من ذلك فإنها شوهت الشريعة وشوهت الإسلام ونفرت عنه ، ويضاف إلى ذلك أنها وضعت واستغلت لإرهاب الشعب وسوقه إلى الإبتكارة عن طريق إذلاله ، ثم أنها هددت وحدة البلاد ، هذا من حيث التنظير ، أما من حيث التطبيق فإن القضاة الذين يتولون المحاكمة تحتها غير مؤهلين فنيا وضعفوا أخلاقيا فوضعوا أنفسهم تحت سيطرة السلطة التنفيذية تستعملهم لإضاعة الحقوق وإذلال الشعب وتشويه الإسلام وإهانة الفكر والمفكرين وإذلال المعارضين السياسيين . ومن أجل ذلك فإنني غير مستعد للتعاون مع أي محكمة تتكرت لحرمة القضاء المستقل ، ورضيت أن تكون أداة من أدوات إذلال الشعب وإهانة الفكر والتكيل بالمعارضين السياسيين " .

وهذا بالضبط ما كان يفعله نظام مايو مع كل المعارضين طوال عهده ، والجمهوريون ساكتون عن المذابح التي تعرض لها الأنصار ، الشيوعيون ، والمواطنون .

نسى الجمهوريون شعارهم المتميز " الحرية لنا ولسوانا " ، كما نسوا مشاركتهم فى لجنة الدفاع عن التحريات التي تكونت فى ١٩٦٥ بعد حل الحزب الشيوعي .

إلى مدى أصاب محمود وخطأ فى ترتيبه الأولويات (أو السلوى) بين الحكم العسكري والديمقراطية التي تؤدي بالضرورة إلى الحكم الطائفي؟؟

وإذا كان تأييد محمود لمايو لإنقاذه من الدستور الإسلامي - المزيف - الذى كادت أن تقره الجمعية التأسيسية ، وما قد يتأتى عنه

من احتمال تطبيق حكم الردة عليه ، فقد أحل تأييده لمايو تنفيذ الحكم لحوالي خمسة عشر عاما . وبتأييده نظام حكم النميري أصبح محمود عدوا للجميع : الطائفية ، والإسلاميين السلفيين ، الديمقراطيين والشيوعيين . وبخلافه مع مايو اكتملت الحلقة حوله .
دقة الفكر ومتانة الخلق .. لم تعصم محمود من ارتكاب أخطاء قاتلة إستغلها خصومه فى القضاء عليه .

الترابي ومقتل محمود

كان الترابي ركنا فى نظام النميري عندما تم إعدام محمود ، فماذا كان موقفه الديني ، والسياسي ، والقانوني ؟
أخبرني أحد أعضاء الجبهة أنه سمع الترابي يقول فى إجابة على سؤال عن مقتل محمود فى ندوة فى القرية عشرة بالفاو أقيمت إثر سقوط حكم النميري فى العام ١٩٨٥ يقول :
" أنا اللي قتلته محمود " ..

يقال أنه ظهرت للترابي فتوى بأن المرتد لا يقتل . هل كان هذا ما يراه الترابي قبل وأثناء محاكمة محمود ؟
إذا كانت الإجابة نعم ، فماذا كان موقفه ؟؟
وإذا كانت الإجابة بالنفي ، بمعنى أنه كان يرى قتل المرتد ، وعلى ذلك ايد قتل محمود ثم تبين عنده لاحقا أن المرتد لا يقتل ، فأى دين وأي فكر هذا الذى يتلاعب بحياة الناس بهذه البساطة ؟؟
وإن لم تكن المسألة فإن الحد الأدنى المتوقع ، اعتزال العمل الديني والفكري والسياسي . وعلى نفس القياس كل من شارك فى إغتيالات حيازة العملة الأجنبية أول عهد حكم عمر البشير .

مقتل محمود وبنك فيصل الإسلامي

فى أوائل عام ١٩٨٤ كنت فى بورسودان ومعى صديق إسلامي منظم ، وكان الجمهوريين فى قمة نشاطهم ، وكان رد النميرى عندما اشتكى له البعض منهم عن نشاط محمود وما يبثه من أفكار مخالفة للدين التقليدي بأن عليهم مقارعة الحجة بالحجة !!

عرض علينا أحد الجهوزيين كتابهم حديث الإصدار عن بنك فيصل الإسلامي ، فاشتريته . سألتني صديقي صباح اليوم التالي - وكنت مقيما بلوكاندة الخرطوم :

- كيف كتاب صاحبك؟؟

= دعك من الكتاب . لكن أيام محمود أصبحت معدودة !!

- كيف ؟

= بشكل أو بآخر سيغتال أو يقتل محمود فى القريب العاجل ، وإذا كنت حيا سترى ذلك .

- بسبب هذا الكتاب .

= هذا الكتاب حكم إعدام على محمود .

وفى تبيان ذلك شرحت له بأنه من المعلوم تاريخيا عن المسلمين إتساع صدورهم فى الخلافات الدينية ، لكن العنف والقتل بلا رحمة يكون فى مسائل السلطة .. والمال . وكتاب محمود هو فى المناطق المحرمة .. فجزاؤه القتل .

كان معى فى الفندق شاب تحدث عن محمود بعد أن رأى الكتاب ، وعرف أنى ليست جمهوريا ، وذكر أنه كان جمهوريا ، وإنسلخ . قال عن محمود : " أنه متعجرف ومتكبر وحاسد " ، وكان تبريره لذلك : أنه يتحدث من تحت أنفه متغترسا ، ويرى نفسه من طينة غير البشر ويريد من الناس أن يعبدوه .

وعن حسده ، ذكر أن محمود وبعض جماعته قد لاحظوا من يقوم بعمل مصطبة جميلة أمام بوابته فى الشارع ، فقال له محمود :

سلطنتك على الشارع شنو ؟؟ وكان الشاب يقلد كلام محمود من الأنف ساخرا .

قلت له إن محمود مهندس يعرف حدود الشارع والتعامل فيه ، كما أنه شديد التواضع في كلامه وملبسه ومسكنه . فقال : إن كل ذلك لا يهمه ، فهو يريد خضوع رقاب الناس وهذا ما لا أعلمه . أما ما أعرفه يقينا شدة محبة وولاء وطاعة أتباعه له ، وإذا كان يضرب المثل بطاعة الأنصار العمياء لإمامهم فالجمهوريون يتفوقون عليهم في ذلك .

ليس صحيحا ما يقال عن أن كل أتباع محمود من الكوادر العقلية والثقافية المتميزة . وأذكر في هذا الصدد : تحدث أحد عوام وجهلاء الجمهوريين في الندوة الأسبوعية التي كانت تقام في منزل محمود ، وكان كلامه يدل على مستوى ثقافي متدني ومستوى تفكير طبيعي منخفض ، فسألت محمود بعده مباشرة :

أيهما أفضل .. أن يلم الشخص ببعض جوانب المذهب الفكري ثم يعتنقه ، أم يعتنق المذهب أولا ثم يدرسه ؟؟
وكان رده المتوقع كسياسي ورئيس حزب يهمه زيادة عضويته : أن يدخل أولا ثم يتفقه !!..

هل المطلوب من السياسي أن يكون مفكرا عبقريا ، أم أن يكون مفكرا عمليا حتى ولو كان صاحب مبادئ مثالية ؟؟
وهل ينجح المفكر العبقرى صاحب المبادئ المثالية كسياسي عملي واقعي ؟

هل كان محمود السياسي ناجحا ؟؟
وهل هذا الخلط الذى قام به محمود بين التبشير بمذهب ديني غير تقليدي ، وممارسة العمل السياسي الحزبي ، فى بلد يحوى هذا الكم والتنوع الهائل من المتناقضات كالسودان ، هل من الممكن أن يؤدي

إلى غير ما لاقاه محمود طوال حياته ، والتي انتهت بهذه النهاية
المأساوية " السقراطية " ؟

كل منهما - محمود وسقراط - كان محبا للناس ساعيا في صلاحهم
، ومحبا للحياة مقبلا عليها ، متمتعا بمحبة أهله وأصدقائه وكان فى
إمكانه تفادي مصيره بالقليل من التنازلات ، واحسب أن التشابه بينهما
يتعدى ذلك لجوانب أخرى منها :

الشكل العام وتكوين الجسم الطبيعي .
السلوك العام والخاص والنظرة للحياة والأحياء .
اشتراكهم فى خطأ تقييم البشر .

ينسب إلى سقراط قوله : أن الفضيلة هى المعرفة . بمعنى أن
الإنسان لا يعمل الشر وهو عالم به ، وأن كل ما يحتاجه الإنسان
ليكون خيرا هو المعرفة . وبشكل أو بآخر كانت هى نفس مفاهيم
محمود .

تناسوا بذلك ضعف إرادة الإنسان ، كما يرى آخرون أن الشر هو
الأصل فى الإنسان عامة ، وعليه بذل الجهد الجهد لمقاومة النزعات
الشريرة المتأصلة فيه .

قد يضيف البعض لأوجه الشبه بين الرجلين : أن كلاهما
فليسوف !!

سألنى محمود بعد امتحاني للشهادة السودانية عن الدراسة الجامعية
التي ارغب فيها فأجبته بأنى أرغب فى دراسة الفلسفة ، فقال :
الفلسفة لا تحل مشاكل الإنسان ، يحلها الدين - وأضاف أنه من
الأفضل الإلتحاق بكلية علمية مهنية - ويمكن التنقيف بالقراءة الحرة
حسب الرغبة .

وقال عنه زميله فى كلية غردون المهندس المتميز محمد الكويابى
- المناقل - إنه كان جادا فى كل شئون الحياة .

رسالة الصلاة

من أهم ما ناقشته فيه على انفراد في منزله ، ماجاء فى كتابه رسالة الصلاة " ، وما تفرع عنه من حديث ، وننقل هنا بعض ما جاء فى الكتاب ، الطبعة السابعة ابريل ١٩٧٩ .

... الفردية هى المدار الإسلامى هو مصدر التشريع بالأصالة ، والجماعة بالتبعية للفرد ، وأن الفرد لا يتم إستوائه إلا بتجاريبه فى الجماعة . (١)

... والقانون الدستورى فى الفكر الإسلامى هو القانون الذى يملك التوفيق بين حاجة الفرد إلى الحرية الفردية المطلقة وحاجة الجماعة إلى العدالة الإجتماعية الشاملة (٢)

... الصلاة وسيلة ، الصلاة الشرعية المألوفة فى الحركات المعروفة الأوقات ، وهى وسيلة إلى المقام الذى يكون فيه الفرد فى صلة تامة وجسمية شاملة بربه . (٣)

... وللصلة معنيان (٤) : الصلاة بالمعنى القريب وهى الصلاة الشرعية ذات الحركات المعروفة (٥) . فى مقام الشهود الذاتى فرضت الصلاة بالمعنى البعيد (٦) وهى الصلة مع الله بلا واسطة فى مقام " مازاغ البصر وما طغى " ، حيث تطمئ عن العبد ذاته المحدثه ، وتبقى ذاته القديمة فى صلة مع القديم لا يفصلها وسيط ولا تقوم بينهما وسيلة ، وهناك تسقط الوسائل والغايات ولا يبقى إلا الواحد " وليس لفن العبارة هنا نصيب " ولم يكن جبريل حاضرا لأنه لا مقام له فى شهود الذات ، وذلك لأنه لا ذات له - لا نفس له - بها يطبق أنوار التجلى الذاتى... وفى مقام الشهود الأسمائى فرضت الصلاة بالمعنى القريب ... وهى الصلاة الشرعية وقد كان جبريل وسيطا فيها.

كيف نخرج بصلاة التقليد إلى صلاة الأصالة :

أول ما يقال أن الصلاة هي أشرف عمل العبد ، وأنه يجب أن يؤخذ كل ما يتعلق بها مأخذ الجد التام (٧) .. فإذا أردت أن تحضر في الصلاة فيجب أن تحضر في الوضوء ، ويجب أن تعرف له من الحرمة ما تعرف للصلاة تماما ، لأنه طرف فيها فهو يبطل بما تبطل الصلاة . والنية في الوضوء منتقلة مع غسل الأعضاء .

الصلاة بين المؤمن والمسلم : (٨)

... ويصبح شأن الآية " إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا " مع المسلم الذي يمر بمرحلة الإيمان الذي هو مرتبة الأمة الأولى ، أن الصلاة في حقه فرض له أوقات يؤدي فيها ، فإذا إرتقى بحسن أدائها بتجويده تقليد المعصوم ، حتى إرتقى في مراقي الإيمان التي ذكرناها حتى بلغ حق اليقين ، وسكن قلبه وأطمأنت نفسه ، فأسلمت طائعة المعنى البعيد للكلمة " موقوتا " في الآية . وذلك المعنى في حقه هو أن الصلاة الشرعية فرض له وقت ينتهي فيه ، وذلك حين يرتفع السالك إلى مرتبة الأصالة ويخاطب بالاستقلال عن التقليد ، ويخاطب ليأخذ صلاته الفردية عن ربه بلا وساطة تأسيا بالمعصوم ، فهو حينذاك لا تسقط عنه الصلاة وإنما يسقط عنه التقليد ، ويرفع من بينه وبين ربه - بفضل الله ثم بفضل كمال التبليغ المحمدي - الحجاب الأعظم .. الحجاب النبوي (٩) .

ومما قلته له : إن القارئ العادي يعجبه ما في الجزء الأول من الكتاب . ويوطن نفسه على التشمير وبذل الجهد لتطبيقه إلا أنه عندما يواجه بما في الجزء الثاني من الكتاب عن رفع الحجاب والتطور حتى مصاف الأنبياء والرسل ، ومخاطبة الله سبحانه وتعالى كفاحا - مباشرة من غير واسطة - يلقى بالكتاب جملة وتفصيلا . وهذا ما ينطبق على دعوتكم عامة .

وكان رده : إذا كان القارئ أمينا مع نفسه لقال : كان مقنعا ومجودا عندما حدثني فيما أعلم ، وعليه فبالضرورة يكون حديثه فيما لا أعلم على نفس القياس .

إن الذي تقوله لا يمكن إثباته بالعقل ولا النقل ، إنما كشف ، وهذا يمكن إدعائه من كل الأفراد ، فما مصير الدين ونظام الحياة كلها ؟ وهب أن ما قلته صحيح فما الفائدة العملية المرجوة ؟؟ يكفي الحث على التجويد والمجاهدة ، وليرى بنفسه بعد ذلك ما يرى . قلت له : إذا اقتصرتم دعوتكم على جانب المفهوم العملي من الدين لاكتسحت حركتكم السودان لمصداقيتكم وإخلاصكم وعقلانييتكم !! طلب مني تكرار ما ذكرته واستغرق في الصمت لبعض الوقت وقال بصوت منخفض كأنما يكلم نفسه : من الأفضل أن يكون الإنسان عالما بما سيحدث .

متفرقات عن محمود

مثله مثل الصوفية الجادة الصادقة - يؤمن محمود بالجبر ويقول إن الإنسان مسير إلى ما فيه خيره .

يقول محمود بأن الإسلام رسالتان :

الرسالة الأولى : تقوم على فروع القرآن - المدني ، أمة المؤمنين .

الرسالة الثانية : تقوم على أصول الدين - المكي - أمة المسلمين .

وفي تفسير ذلك يقول :

أقوال المعصوم (ص) هي شريعته لأمة المؤمنين بحكم الوقت ، بعد أن عجزت عن تحمل مسؤولية أمة المسلمين حسب القرآن المكي فنسخ القرآن المكي بالمدني ، وجاء بتشريعات أمة المؤمنين وظل النبي (ص) هو المسلم الوحيد في تلك الأمة .

ولكن بحكم التطور الذي حققته الإنسانية في الحقب اللاحقة فقد تأهلت لتحمل تكليف أمة المسلمين وجاء وقتها . وأن أدنى أفراد أمة

المسلمين أعلى من أعلى أفراد أمة المؤمنين - لا يستثنى الصحابة بما فيهم أبا بكر وعمر ، وقد سألته عن ذلك مباشرة فكان رده كذلك .
ويقول إن الأمر بإختصار هو إحياء سنة النبى (ص) فى ذات نفسه ، ولم يكلف بها أمة المؤمنين :
الصلاة : النوافل وقيام الليل فرض .

الصيام : المواصلة ، مواصلة الصيام بضعة أيام بلياليها .
الزكاة : نزلت الآية " يسألونك ماذا ينفقون قل العفو " بمعنى إنفاق كل ما زاد عن الحاجة الحاضرة . وعندما عجزوا عن ذلك نزلت عليهم زكاة المقادير . إلا أن النبى ظل ملتزما بإنفاق كل ما زاد عن حاجته الحاضرة ولذلك ما بات فى بيته درهم ولا دينار .
ومن أقواله :

الراسمالية هي نتيجة قانون الغابة الذى يعطي الحق للأقوياء .
وقانون الغابة سابق لمرحلة قانون العدل والرحمة .
الاشتراكية هي صراع العندهم والماعندهم ، وهي نتيجة حكم القانون الذى يرفع حق الضعيف .

الديمقراطية هي المشاركة فى السلطة مثل (الاشتراكية : صراع بين العندهم والماعندهم) فى الصعيد السياسي .
المساواة الاجتماعية : بعد المساواة السياسية (الديمقراطية)
والمساواة الإقتصادية (الاشتراكية) يتوج كل ذلك بتحقيق المساواة الاجتماعية وهي أصعب هذه المراحل . وفيها يتساوى الجميع بلا عقدة من لون أو عرف أو دين أو جنس ، وهو المجتمع الراشد الحر الذى يفكر فيه الإنسان كما يريد ويقول كما يفكر ويعمل كما يقول ويكون نتاج ذلك خيرا وبركة وبراً بالناس .

الأخلاق هي حسن التصرف فى الحرية المطلقة .
المال : الأصل فى الاسلام شيوع المال ليأخذ كل حاجته وهي زاد المسافرين .

الأصل في الإسلام السفور : لأن مراد الإسلام العفة وهو يريد لها عفة في صدور الرجال والنساء لاعفة مضروبة بالباب المقول والثوب المسدول .

قد يكون محمود مثله وبعض المفكرين الإسلاميين الآخرين ، حدد مذهبه مسبقا ثم حاول جهده إيجاد الأسانيد لإثباته حتى لو اضطر لتأويل بعض الآيات ولى أعناقها .

مثلا : الآية السابعة من سورة آل عمران :

" هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون أمانا به كل عند ربنا ، وما يذكر الا أولى الالباب " .

فى عامة المصاحف وقف إلزامى عند " وما يعلم التأويله الا الله " وهكذا ينتفى علم التأويل من الراسخين فى العلم . أما محمود فينتفى الوقف هنا بتاتا ، ويقول : الوقف اللازم بعد العلم ، وهو بذلك يثبت علم التأويل لله وللراسخين فى العلم . وحجته : ما الحكمة فى نزوله اذا انتفى علم التأويل عن الراسخين فى العلم ؟

فى حالات أخرى قد يذكر جزء من آية لدعم حجته ، فى حين قد ينتفى باقى الآية .

" واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك ، قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون " الآية ١٥٦ سورة الأعراف .

يستدل محمود بجزء من الآية حتى : " ورحمتى وسعت كل شئ " ويقول بأن العذاب نفسه منطوى تحت ظل الرحمة ، وهكذا ينتفى وجود العذاب الأبدي والذي يقول عنه : أنه لا يصدر إلا من نفس حاقدة مريضة .

الواضح هنا تحديد وتقييد مستحقي الرحمة وليست مطلقة كما يرى محمود .

محمود وابن طفيل

يبدو أن نفس الأشكال العلمي أو المذهبي الذي نشأ بين محمود محمد طه والسنيين أو السلفيين كان قائما عندما ألف أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل الأندلسي القيسي المولود في نحو خمسمائة هجرية جوار غرناطة في الأندلس راعته الخالدة " حى بن يقطان " .

بعد أن سمع حى عن الله والرسول ، بقى فى نفسه أمران كان يتعجب منهما ولا يدري وجه الحكمة فيهما :

إحداهما : لم ضرب هذا الرسول الأمثال للناس فى أكثر ما وصفه من أمر العالم الإلهي ، وأضرب عن المكاشفة حتى وقع الناس فى أمر عظيم من التجسيم وإعتقاد أشياء فى ذات الحق هو منزه عنها وبرئ منها كذلك فى أمر الثواب والعقاب ؟

والأمر الآخر : لم اقتصر على هذه الفرائض ووظائف العبادات وأباح الاقتناء للأموال والتوسع فى المأكل ، حتى يفرغ الناس للاشتغال بالباطل والإعراض عن الحق ؟ وكان رأي حى بن يقطان هو ألا يتناول أحد شيئا إلا ما يقيم الرmq ، وأما الأموال فلم تكن لها عنده معنى . وكان يرى ما فى الشرع من الأحكام فى أمر الأموال : كالزكاة وتشعبها أو البيوع والربا والحدود والعقوبات فكان يستقرب ذلك كله ويراه تطويلا . ويقول : الناس لو فهموا الأمر على حقيقته لأعرضوا عن هذه الباطل وأقبلوا على الحق ، واستغنوا عن هذا كله ولم يكن لأحد إختصاص بمال يسأل عن زكاته أو يقطع الأيدي على سرقة أو تذهب النفوس على أخذه مجاهرة .

... وكان الذي أوقعه في ذلك ظنه أن الناس كلهم ذوو فطرة فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس عارمة ، ولم يكن يدري ما هم عليه من البلادة والنقص وسوء الرأى وضعف العزم وانهم أضل سبيل .

وما زال حتى بن يقظان يستلطفهم ليلا ونهارا ، ويبين لهم الحق سرا وجهارا ، فلا يزيدهم ذلك إلا ميلا ونفارا مع أنهم كانوا محبين للخير راغبين في الحق ، إلا أنهم لنقص فطرتهم ، كانوا لا يطلبون الحق من طريقه ولا يأخذونه بجهة تحقيقه ، ولا يلتمسونه من بابيه ، بل كانوا لا يريدون معرفته من طريق أربابه ، فيأس من اصلاحهم وانقطع رجاءه من صلاحهم لقلة قبولهم " .

" وتصفح طبقات الناس بعد ذلك ، فرأى كل حزب بما لديهم فرحون وقد إتخذوا إلههم هواهم ، ومعبودهم شهواتهم ، وتهاكوا في جمع حطام الدنيا ، ألهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر ، لا تتجح فيهم موعظة ولا تعمل فيهم الكلمة الحسنة ولا يزدادون بالجدل إلا إصرارا ، وأما الحكمة فلا سبيل لهم إليها ... " .

" فلما فهم أحوال الناس وأن أكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق ، علم إن الحكمة كلها والهداية والتوفيق فيما نطقت به الرسل ووردت به الشريعة . ولا يمكن غير ذلك ، ولا يحتمل المزيد عليه ، فاكل عمل رجال ، وكل ميسر لما خلق له " .

" فانصرف إلى سلامان وأصحابه ، فاعتذر عما تكلم به معهم وتبرأ منه وأعلمهم أنه قد رأى مثل رأيهم واهتدى بمثل هديهم وأوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة وقلة الخوض فيما لا يعنيههم ، والإيمان بالمتشابهات والتسليم لها ، والأعراض عن البدع والأهواء والإقتداء بالسلف الصالح والترك لمحدثات الأمور . وأمرهم بمجانبة ما عليه الجمهور العوام من إهمال الشريعة والإقبال على الدنيا وحذرهم منه غاية التحذير ، وعلم هو وصاحبه إن هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاة لها إلا بهذا الطريق ،

وأنها إن رفعت عنه إلى بقاع الاستبصار إختل ما هي عليه ولم يمكنها
أن تلحق بدرجة السعداء وتذبذب وانتكست وساءت عاقبتها ، وإن هي
دامت على ما هي عليه حتى يوافيها اليقين فازت بالأمن وكانت من
أصحاب اليمين .

محمد طه ، محمود — رسالة الصلاة ص (٥٧)

- . المرجع السابق ص (٥٩)
- . المرجع السابق ص (٦١)
- . المرجع السابق ص (٧٠)
- . المرجع السابق ص (٧٤)
- . المرجع السابق ص (٧٥)
- . المرجع السابق ص (٨٦)
- . المرجع السابق ص (٨٢)
- . المرجع السابق ص (٨٤)

الباب الرابع

في الدين والسياسة

علوم المستقبل فى القرآن

كما حدثنا القرآن الكريم عن الكون ، والمخلوقات الأخرى غير الأرضية ، وخلق الإنسان ، والحكمة من خلقه والمطلوب منه .. حدثنا عن المستقبل ، القريب منه والبعيد

القريب : الحياة الدنيا حتى نهايتها . البعيد : ما بعد الحياة الدنيا .
والمطلوب من المسلمين القيام بالدراسات الخاصة بعلوم المستقبل القريب ، وهم مؤهلون لذلك أكثر من غيرهم . من الأمثلة على ذلك :

* إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلف به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس شيئاً ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون (يونس ٢٤) .

هذه هي الصورة الأكيدة للمسيرة الإنسانية والكونية فى المستقبل القريب ، والذى بدأت تباشره . قبل أن يأذن الله سبحانه وتعالى بإنتهاء الحياة على كوكبنا فإن الأرض كل الأرض ستأخذ زينتها ويكتمل جمالها ويظن سكانها أنهم قادرون عليها . وأحسب أن من ذلك أن تسير الحياة فى وفق رغباتهم ، وذلك بالسيطرة على درجات الحرارة ، الرياح ، الأمطار ، الزلازل ، الأمراض ... إلخ ، ويسبق ذلك بالضرورة تنسيق جهد عالمي منظم فى السياسة والاقتصاد ، والإجتماع ، والبيئة ، والقضاء على الحروب ، وفرض المنازعات سلمياً .

* (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أساتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ليسووا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علو تتبيرا) يونس (٧) .

قد تكون هذه نهاية إسرائيل المتوقعة : أن يدخلوا المسجد سلمياً كما دخلوه أول مرة — فى عهد الخليفة العادل عمر ابن الخطاب — ومن ورائهم قوة مادية ومعنوية هائلة بنظام حكم شديد .

العلاقة الإنسانية فى القرآن الكريم

أفاض وفصل القرآن الكريم فى ذكر مختلف علاقات الإنسان مع ربه : الكون ، الحياة والأحياء ، مع نفسه والآخرين . وبما أن هذه ليست من المناطق المحرمة عند السلطات والسلطان ، فقد أبدع فيها علماء المسلمين .

نذكر بعض الإشارات من بعض الآيات لما نحن فيه ، وسنحاول الإختصار وتفايد التكرار .

بعد أن كلف الله سبحانه وتعالى الإنسان بالرفق بنفسه وأبان له أنه — سبحانه وتعالى — به رؤوف رحيم ، كما جاء فى الآية : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيماً) النساء (٢٩) ، طلب منه وبكثير من التفصيل حسن التعامل مع إخوانه البشر على مختلف أشكال العلاقة ومستوياتها (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) النساء (٤٨) . طالما أن الله سبحانه وتعالى يغفر لغير المشرك فيفترض تعاملنا معه وفق ذلك ، وحتى الشرك نفسه فقد نص له القرآن من الحقوق ما يكفيه ، وأن له الحق (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه وذلك بأنهم قوم لا يعلمون) التوبة (٦) .

وهذا الإنسان الذى حمل الأمانة (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ...) الأحزاب (٧١) ، فقد كلفه خالقه بالعدل العام الشامل

والإحسان و ... كما فى الآية (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون) النحل (٩٠) . وأباح الله الجهر بالسوء من القول لمن ظلم كحالة استثنائية (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ، وكان الله سميعاً عليماً) النساء (١٤٧) .

وأمرنا بالصفح (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية ، فأصفح الصفح الجميل) الحجر (٨٥) . كما دعانا (قولوا للناس حسناً) ، وبشر وأثنى على (الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) .

أمر المؤمنين بالشورى (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) الشورى (٣٨) . ونهى عن الظلم والبغى (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم) الشورى (٤٢)

وبعد ان أمر القرآن الكريم بسد منافذ التعاسة والشقاء سلباً ، أمر بكف الأذى إيجابياً أي العمل على إزالته . ودعا إلى فتح أبواب السعادة على مصراعيها : المادية والمعنوية والكلمة الحسنة ، نبضات الحب والمودة ... الخ ، لتشمل وتعم الجميع ، كل حسب درجته ومكانته — القريب ، البعيد ، الجار ، والإخاء الإنساني العام . فالخير والمودة والمحبة والإحسان مبذول لكل الناس . ولا يتأتى ذلك بالدعاء والنوايا الحسنة فقط انما بالعمل المنظم الجاد (... أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ..) الرعد (١١)

وهذا لا يتنافى مع معرفتنا وإدراكنا لمواصفات هؤلاء البشر الذين نسعى لإسعادهم ، كما جاء فى القرآن : أكثرهم لا يعقلون ، لا يعلمون ، لا يؤمنون ، لا يشكرون ... كالأنعام ، كالحجارة .

فلا نخدع أنفسنا حتى لا نصطدم بالواقع وننتكس إلى أسوأ مما كنا فيه و (افعلوا الخير لعلكم ترحمون) .

الفصل الأول

الترابي والمصالحة

بعد المصالحة ومشاركة الترابي في نظام مايو ، وأنا في زيارة للسودان ، التقيت بأحد القضاة السابقين وقد التحق بديوان النائب العام وأظنه كان مشرفاً على مكتب الترابي بالديوان ، ومن الأخوان المسلمين — أحسب أن اسمه عبد القيوم . سريعاً توطدت العلاقة الشخصية بيني وعبد القيوم ، واذكر أن ذلك كان في شهر رمضان وقد افطر معنا بحى الزهور ، تحدثنا عن المصالحة ومحاذير التعامل مع النميري ، عرض علىّ تدبير لقاء مع الترابي ، وقد كان راغباً في سماع وجهة نظر شيخه الترابي .

تم الاتفاق على موعد اللقاء بديوان النائب العام على أن يحضر الترابي من مكتبه الذي استلمه حديثاً بالاتحاد الاشتراكي السوداني . تأخر الترابي عن الحضور فأتصل به عبد القيوم تليفونياً فاعتذر بعدم وجود سيارة . فعرض عليه عبد القيوم احضاره بسيارته البيجو ٤٠٤ ، وأضاف — ما بتليق بالمقام . لم يوافق الترابي واقترح امكانية ذهابنا للاتحاد الاشتراكي إذا لم يعترض الضيف على دخول الدار . ذهبنا بالبيجو للمكتب المتواضع تحت التأسيس ، وجدنا الترابي يتحدث عن تجهيز المكتب والمكيف والسكرتارية . صلينا ثلاثتنا الظهر ، أمّا الترابي وكان يرتدى بنطلون عسلى كما يقول رجال الجوزات عن عيون كل أهل السودان . وكانت وجهة نظري بإختصار أن النميري الذى اغتال أصدقاءه وزملاءه لا يمكن أن يؤمن جانبه !!..

وكان رد الترابي بأننا كسبنا حرية الدعوة والعمل . فقلت له قد يكون من الأفضل استغلال حرية الدعوة والعمل في التعامل الشعبى المباشر بعيداً عن السلطة كإقامة مؤسسات إسلامية فى مختلف المجالات العملية فى إدارة شئون دولة إسلامية ، اقناع الجمهور ببديلي

إسلامي متميز ومتطور ويحقق مصداقية ومثالية الإسلام على أرض الواقع .

اقترح الترابي أن نشارك في دفع العربة فاعتذرت عن ذلك . وأخيرا كما هو متوقع زج بهم النميري في السجون ، وقبل أن يبطش بهم بطشته الكبرى فقد النميري مقعده ، وهكذا لم ينجوا من عذاب النميري فقط ، انما نجوا من محنة السقوط مع النميري . وبعد أن كانوا من أذئاب مايو يصبحون من أنقاض آثار مايو وهكذا شاء لهم الله القدير أن يتجاوزوا فترة اشتراكهم في نظام مايو بسلام .

بنك فيصل الإسلامي

أحد المؤسسات الإسلامية الشعبية التي كنا نتمناها ، والذي كتب عنه حزب محمود كتابهم القاتل .

وعندما طرح البنك أسهما للاكتتاب في عام ١٩٨٣ بواقع السهم ١٦,١٦ دولار ، اشتريت بما يزيد عن سبعة آلاف دولار ، وسريعا ما اتضح لي إن هذه الفلوس تستغل في أغراض هي أبعد ما تكون عن مصالح المساهمين المالية . وقد أخبرني أحد الموظفين أن البنك يعمل لمصلحة الإسلام ، فقلت له أني لم أساهم لأسباب دينية ولا سياسية بل ساهمت فقط للحصول على أرباح شرعية . في إحدى إجتماعات المساهمين وكان يرأسها د . صلاح كمال تحدث عن أن هذا البنك لا يعمل لمصلحة المساهمين وأن فلوسنا في حكم الضائعة . ووجهت حديثي لرئيس هيئة الإفتاء بالبنك - الشيخ الضرير - أن ما يجري في البنك هو أسوأ من الربا ، وأنهم أكلوا فلوسنا ، ثم عرضت أسهمي بنصف قيمتها علنا . وافق المحامي فتحى خليل على الشراء فطلبت منه إعلان التزامه بالشراء ، ففعل . إلا أنه رفض صباح اليوم التالي ، وكأنى به كان يريد التنفيس عن المنتفعين . كما عرض على الدكتور كمال تمويل مشروع ، فقلت له : كل ما أريده هو قطع علاقتى مع

هذا البنك . بعيدا عن المجتمعين حدثني أحد الموظفين المساهمين فقال أن ما قلته حقيقة ، وأن أموال هذا البنك تتسرب بطريقة مريبة ، وأنهم أطلعوا بعض المساهمين على حقائق خطيرة وكان يفترض ذكرها في هذا الاجتماع إلا أنهم جبنوا .

كلم ابن عمى ابراهيم - الجبهي - وهو من كبار الجبهجية المنتفعين من البنك وله مكتب فخم بالفحاء مبنى البنك الرئيسي ، حدثه عن بيعي للأسهم فوافق على شرائها ، وسافرت له وسألني عن الثمن فقلت أبيع بنصف الثمن .

- هذا بيع وكسى .

- الوكس أنا ما أعرفه ، لكن أكون شاكرا إذا اشتريتها.

- أنا أشتريها بالثمن الكامل .

سافرت له للمرة الثانية أو الثالثة ، وبعد انتظار ومكالمات هاتفية

قال :

- الأسهم دي ما نافعة !

" بعد كل هذه المشاوير "

- " أنا عارف ما نافعة ، إنت ما عارف الحاصل شو ؟ ! أخذوا

فلوسنا نحن وأعطوها لك أنت علشان تشتغل بيها وتغنى وتتمتع وتقعّد في المكتب دا .. !!

- ما في داعي للكلام !!

- مية داعي ، علشان تعرف الذين دفعوا الثمن : المساكين

والأراامل دفعوا فلوسهم علشان اسم الدين .

- أنت عارف مين أنا !!

- علشان عارف . بقول هذا الكلام !!

وأخيرا انكشف بنك فيصل الإسلامي على حقيقته وضاعت حقوق

المساهمين ، وأصبحت قيمة خمسة أسهم بدولار واحد .

صلاح المصباح

فى نفس الأيام التى تحدث فيها الأستاذ صلاح حديثه الشهير مع النميري فى مسجد قوات الشعب المسلحة كنت مزما السفر لليونان للدراسة والعمل والإستقرار ، حيث سبقني الزميل الصديق محمد الحسن البدوى ، الإسلامى المتعصب المتحمس . كنت على علاقة حميمة بأسرة محمد الحسن خاصة والده ، كثير الزيارة لهم فى منزلهم جنوب حديقة القرشي . بدأت محاكمة صلاح المصباح فوراً وهو صديق وابن عمه ونسيب محمد الحسن ، وبالطبع كانوا فى تتبع يومى للمحاكمة .

سافرت اثنا ونزلت بداخلية " اليسيا " حيث يقيم محمد الحسن مع الطلبة السودانيين . كان اهتمامهم منصب على الشاب السودانى الشجاع الذى واجه النميري فى المسجد - الإسم غير معروف لديهم ، وذلك بزعامة محمد الحسن ، وكان بودي التريث حتى أحدثه على إنفراد ، فقلت لهم أنه تعرض لاعتقال رجالات الأمن والمساءلة والمحاكمة ، فخطب محمد الحسن عن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر . . .

فقلت لهم أن له أسرة وزوجة وأطفال وأنهم جميعا فى حالة قلق وإنزعاج مما جرى عليهم . . . إشتعل حماس محمد الحسن وقال أن على الناس التضحية وتحمل النتائج و . . . ولإسكاته سألته :

- أنت عارف إالى تكلم مع النميري دا مين ؟
- لا ما عارف .
- دا صلاح المصباح .
- قال شاخص العينين : صلاح حقنا ؟
- آي صلاح حقكم !
- الزول دا جنة والا شنو ؟؟

- جنة عسة ، ما كان بطل ، وكانت التضحية .

صحيفة المعارضات العربية

عن العمل فى أثينا عرض على أحد قدامى الطلبة السودان العمل فى صحيفة عربية يعمل نائبا لرئيس تحريرها . بعد الإتفاق المبدئى وتحديد تاريخ بدء العمل قال أنه أن الآوان ليخبرني بأسرار العمل !! وأول ما ذكر أن الصحيفة لا تجدها معروضة فى الأسواق !
- وأين تباع ؟

- إننا نطبع أعداد محدودة ونوزعها لجهات خاصة .

- ما هى الجهات الخاصة ؟

- إننا ننشر للمعارضات العربية ، كل حكومة عربية لها معارضة ونحن ننشر لهذه المعارضات ، ونسلم كل معارضة الكمية المتفق عليها .

قلت له :

- أنتم ما فيكم عاقل ؟

- كيف ؟

- طبعا لن أعمل بهذه الصحيفة ، دعك من الأسباب المبدئية أو الأخلاقية ، أنتم لا تعرفون الأنظمة العربية ، أنتم فى خطر مميت وعليكم تدارك الأمر !
خلال شهر تعرضت الصحفية لهجوم بالمتفجرات قتل فيه الرئيس ، وهو غير سودانى .

لحم الخنزير

السودانيون فى ذلك الزمان مترابطون متوادون فى كل مكان خاصة الطلبة ، إلا إنني لاحظت إنفراد أحدهم ، حتى فى المطعم يكون لوحده أو مع أجنبى . شرحوا لى الأمر :

- لاحظت انغزال فلان .
- لاحظته .
- إنه أكثر إرتباط بالأغاريق من السودانين !
- ما كويس .
- أصبح يأكل معهم لحم الخنزير !!
- بطل كل البطل !!
- يكتب على لحم الخنزير بالعربي كما يوجد لحم بديل .
- دعاني المتهم لشرب الشاي في حجرته ، ذهبت وأخبرته إنى لا أشرب الشاي . وعن تبريراته قال :
- أن بعض الاغاريق أصدقائي ، وتعارفت بهم هنا كما تعارفت بالسودانيين هنا ، وهم عندي سواء .
- وجهة نظر .
- يقولوا أنى أكل لحم الخنزير ، نعم أكل لحم الخنزير .
- بطل كل البطل .
- نعم بطل وحرام ، أعلم ذلك ، لكن الدين في الخنزير وحده ، الخمر والنساء حرام وهم يفعلون كل ذلك ، فلم المقاطعة في الخنزير؟

الجنة بلا عمل

فى نقاش مع استرالي أبيض غير عنصري صديق للسودانيين يدافع عن الالحاد ، قالوا له إنهم لكونهم مسلمين فسيدخلون الجنة . فقال لهم: إذا كانت هناك جنة فلن تدخلوها بهذا الكلام . ما الفرق بيني وبينكم ، وقد أكون أفضل منكم ، وجدتم أنفسكم فى مجتمع مسلم فأصبحتم مسلمين فأى فضل لكم ؟ .

أخبرته إن ما قاله أقرب للإسلام ، فكلام من غير عمل لا معنى له . وأن عليه البحث وقراءة القرآن .

مسلمتان يابانيتين

بالقرب من أحد المساجد الكبيرة باسطنبول استوقفتني شابتان يابانيتان مسلمتان طالبتان بانجلترا ، وقالتا أنهما يريدان معرفة المزيد عن دينهما الجديد . ومما عرفاه عن الإسلام : على المرأة أن تغطي بالكامل عدا عين واحدة ، ومنع التعامل مع الرجال ومنع النساء من دخول المساجد . كان زيهما محتشما عدا غطاء الرأس ، أخبرتهما أن الأمر ليس كذلك ، وحدثتهما عما أحسبني أعرفه ، وأن المنع للخمر والمخدرات والحرية الجنسية والابتذال .. ويمكنهما دخول المسجد والصلاة فيه ، وأن تبحثا عن ابنة أحد الشيوخ بالمسجد لتساعدهما على الإمام بالدين واللغة الإنجليزية .. وقد كان .

تناقض في كتاب مادة الدين

أستاذنا للتربية الإسلامية في الفصل المسائي بمدرسة الخرطوم الثانوية الجديدة في العام الدراسي ١٩٧٤ / ٧٣ ، من خيرة المعلمين : مادة ، أسلوب ، معاملات . في درس الصيام كان يقرأ من الكتاب ، أكمل قراءة صفحة ، قلب الورقة وأكمل ، فإذا بالكلام يتناقض مع بعضه ، مع هذا القرب الشديد ، آخر صفحة مع أول الصفحة التالية . أخبرته بأن هذا الكلام يتناقض مع بعضه .

قال منزعا :

- لا يوجد تناقض في الدين .
- لا أقصد الدين ، لكن الكلام يتناقض مع بعضه البعض .
- الأفضل أن تقول إنك لا تفهم .
- أحسبني فاهما ، فلنقرأ :

قرأت لنهاية الصفحة ، وقلت له : أليس معناه كذا قال نعم . ثم قرأت بداية الصفحة التالية ، وقلت أليس معناه كذا قال نعم . لكن هذا الكلام يتناقض في كذا وكذا وشرحت له التناقض . أخذ يقرأ ، ويقلب

الصفحة ، ويعيد القراءة . فعل ذلك عدة مرات . كان مستغرقا بكل حواسه ، وكأنما على رؤوسنا الطير . وأخيرا أقفل الكتاب ووضعه على الطاولة وشد قامته بعد أن زال عنه التوتر .

- كلامك صحيح يا ابني ، هذا الكلام يتناقض . افاض بقية الحصة عن التناقض ، عن شروط الصحة وشروط الوجوب .

بدأ حصته التالية بعد أيام قائلًا بأنه ذهب للوزارة واجتمع مع لجنة المنهج - وهو عضو فيها . ناقش معهم الموضوع وأنه سيحدث تغيير في أول طبعة قادمة ، ثم فتح أول الكتاب وقرأ :

تمت إعادة طبع هذا الكتاب عدد - احسبها - خمسة طبعات خلال كذا من السنين ، ولم ينتبه طالب ولا استاذ لهذا الخطأ .

الفصل الثاني

العلوم الإسلامية بين الماضي والحاضر

الماضي : فترة إزدهار العلوم الإسلامية في عصر إزدهار الدولة الإسلامية ، والتي تم فيها جمع وتأليف وتصنيف العلوم الإسلامية التي مازالت تشكل المرجعية المعتمدة .

الحاضر : العصر الحديث والتعليم الحديث بعد الغزو الاستعماري ومناهجه ومدارسه الحديثة .

في الماضي

العلوم الإسلامية هي العلوم المركزية ذات الامتياز الأول والعائد المادي والاجتماعي والسياسي الأول ، لذلك اجتذبت العقليات والمواهب المتميزة . دخلوا السباق منذ الصغر - حفظوا ما يحتاج للحفظ ، درسوا على شيوخهم فآلقومهم ثمار ما صار إليهم من الاسلاف الاقذاذ . وهم على علم بالامكانيات المتاحة : العمر الافتراضي للإنسان والحواس ، وقدراته : الذاكرة ، النظر ، ... الخ ، الكتب ونسخها ، الحفظ ، السفر والترحال ، وظروف ذاك الزمان وسلبياته وإيجابياته .

بذلت تلك العبقريات جهدا كبيرا لاستغلال الإيجابيات وتذليل الصعاب والسلبيات ، فحققوا هذا الإنجاز الهائل الذي ظللنا نتطفل عليه حتى يومنا هذا . وما أحسبه يرضيهم ولا يظنوا فينا خيرا إذا ما استمر هذا المنحنى ، إلا أنه تجدر الإشارة إلى المتغيرات السياسية التي لحقت بالنظام الإسلامي شبه الديمقراطي في عهد الخلافة الراشدة وتحويله إلى نظام حكم فردي وراثي أثر استيلاء بنى أمية على السلطة ، استدعت استحداث آليات لسل الاحساس المرفه بقيمة العدل والحرية والمساواة التي غرسها القرآن الكريم ومارسها الرسول الأمين

ورعاها الخلفاء الراشدين على قدر طاقتهم . هذا الإحساس وتلك المفاهيم التي أشعلت الثورة على عثمان ، وقتلته على الإتهام بتجاوزات قد تعد من صالح الأعمال إذا ما قيست وقورنت بما ارتكبه حكام بنى أمية فى أمة المسلمين .

هذا العمل يستدعى بالضرورة تحوير وتهديم فى قواعد الفكر الموجود ، وإقامة فكر بديل فى بحاجات ومتطلبات الحكم الجديد ، وبما يجمع المعارضات الفكرية والسياسية ولضمان استمرار النظام فى المستقبل . وليس من بأس - بل من المرغوب فيه - أن يكون للآخرين نصيب فى الغنيمة ، باستخدام نفس الأدوات أو أخرى شبيهة تفى بالغرض .

وهكذا قد يكون حدث منظم متكامل على المنهج القرآنى فى : نظلم الحكم ، الاقتصاد ، القانون ، المجتمع ... الخ

الحاضر

تسلمت أوروبا راية الحضارة من الشرق الإسلامى بعد أن أعياه الركض بها . ضخ فيها من الدماء الحارة التى ولدت طاقة إبداعية متفجرة غيرت مجرى الحياة التى ألفها الناس . أسهمت بعض اكتشافات عصر النهضة مثل : النظارة ، الطباعة ، الكرسي ، الإضاءة ، المكتبات ، المدارس ، وسائل البحث والتدريس ... الخ فى تشكيل الأساس القوى لنهضة متجددة .

دخلت هذه الوسائل والمعدات والأساليب العالم الإسلامى العربى مع الاستعمار ومدارسه ومفاهيمه الخاصة للحياة والحضارة ، ولذلك لم تكن وسائل محايدة ، بل كانت فى حالة عدااء سافر للإسلام والمسلمين . أما فى الجانب التعليمى - الأكاديمى إرتبط النظام التعليمى الجديد بالتركيبة المهنية والإقتصادية والاجتماعية المستحدثة . والعلوم الإسلامية - المحاربة أصلا من قبل النظام - لا تدر عائدا ماديا

مجزيا وأصبحت فى أدنى سلم الأوليات ، وهكذا تحدد بصفة عامة المستوى العقلي لطلبة هذه العلوم ، وبعد أن استحوذت المجالات الأخرى على العقليات اللامعة . ومن يتفوق فى مجال الدراسات الإسلامية فإنه يتفوق على أقرانه - حسب التصنيف المذكور . وهكذا ما أخذناه باليمين : أجهزة وأساليب حديثة دفعناه بالشمال : افتقاد العقليات المتميزة التى يفترض فيها القيام بعبء شق طريق دراسات إسلامية حديثة بإمكانات ووسائل حديثة . وهكذا ضاعت ثورة العلوم الأولى وأهلت علينا الثورة الثانية ، ونحن مكانك سر . وأطلت الصحوة الإسلامية أو الحماسة الإسلامية ، كان يفترض أن تسبقها صحوة علمية إسلامية عقلانية لتجد الطريق ممهدا ، لكن الذى حدث غير ذلك :

قوى دفع فاعلة من العواطف المنطلقة ، منها الهاديء كالنسيم ، ومنها المغموس فى انفس الشياطين ولفح جهنم ، وما بينهما من مختلف الأشكال والألوان . حالة من الهياج العصبي ، طاقات منطلقة بلا انضباط ولا توجيه . والمحصلة لا شئ إيجابي .

فقدنا الكثير : فقدنا خيار الناس والموارد والزمن ، والأشبه أن يستمر هذا النزيف . لا نفتقد الشجاعة القتالية ولا الشجاعة الأدبية لكن يبدو أننا فى أمس الحاجة إلى جرعات عالية من الشجاعة العقلية .

الشجاعة الفكرية

إن التغلب على الردة الفكرية التى بدأت مع تحول نظام الخلافة إلى نظام حكم ملكي ، وما أحدثته من تغيرات فى كل مناحي الحياة ، وما اكتسبه من زخم وقوى دفع عبر القرون ، يحتاج إلى جهد يخترق كل تلك المقاومات للوصول إلى نقطة الارتكاز الأولى .

- نحتاج للشجاعة العقلية لمحاولة فهم كتاب الله ، أنه أنزل لنتدبر ما فيه وهذا أمر .

- تحاشي سلبيات الغرض والحكم المسبق . اتجاء البحث عن الحقيقة مباشرة وتجنب التصورات والأحكام المسبقة ، أو افتراض وجهات نظر والبحث عن أدله لها .

" قرر الأمويون أن الجبر يخدم دولتهم وطفقوا يبخثوا عن الأدله " -
نؤمن بأن ما جاء في كتاب ربنا عز وجل هو الحق اليقين ، بشرط الفهم الصحيح ، فلا نشعر بالدونية ولا الانهزامية ، ولا نعمل على ترضية الآخرين . كنا نعلم أن الأرض - دحاها - وأن الشمس - تجري ، وكانوا ينكرون ذلك ، وكنا نخشاهم .

التجاوز عن القضايا الانصرافية ، والتركيز على علم تنفيذي مرتبط بالحياة والأحياء . فما ينفعا أن الفتاة كانت تسير أمام موسى وضرب الهواء بعجزتها ؟ ومن شاهد ذلك ؟؟

لا نجزع ولا نضطرب إذا وجدنا ما كنا نعهده من المسلمات ليس منها إنما يحتاج إلى بحث وإعادة نظر ، فلنبحث ولننظر ، ونحن مأمورون بذلك ومثابون عليه .

إن الشروط القديمة والتي ألزمتها دواعي وظروف ذلك الزمان ، قد تتجاوزها التطورات الحديثة ، فإذا كان لزاما على العالم أن يحفظ كذا وكذا ، قد لا يحتاج إلى كل ذلك مع الحاسوب مثلا ، ويمكن الاستعانة بعقليات تحليلية لا تتمتع بملكات في الحفظ . وإذا كان على العالم أن يكون موسوعيا فيما مضى ، فقد يكون من الأفضل التخصص في عصرنا هذا . وقد يوجد من تحقق علمه في مسألة واحدة - فقد اقتنعنا بتحريم مالکوم السجائر منطقيا - قبل عشرات السنين - وهو جاهل بأساسيات الإسلام .

إن المفكر ليس سياسيا ولا محاربا ، عليه البحث الجاد الأمين عن الحقائق ونشرها وهو آمن .

الارتباط العكسي

قد يوجد ارتباط عكسي بين الانتصارات والإنجازات التي تحقّقها البشرية مع اخفاقات وانتكاسات ومخاطر تلم بالأمّة الإسلامية :

١. تزامن خروج المسلمين من شبه جزيرة أيبيريا مع الاكتشافات الجغرافية الكبرى .

٢. اندحار النظام النازي العنصري وقيام دولة اسرائيل .

٣. انهيار الدكتاتورية الشيوعية كشف ظهر وبطن المسلمين .

٤. الدعوة لحقوق الإنسان ، مع استغلالها لأغراض ومصالح وانزال عقوبات بالبعض ، ألا ذلك لا ينفي ضياع الإنسان وحقوقه في العالم الإسلامي .

لسنا في حاجة إلى مهدي منتظر
ولا إلى أذان مسموع في قمر
ولا تعويذة مكتوبة على ورق الشجر
ولا كشف سر يلقى على قلب بشر

ما عندنا يكفي الحاجة ويزيد
إذا ما سكبنا على عقل جليد
ودثرناه بقلب حديد
وهكذا نبدأ العهد الجديد

الفصل الثالث نحو نظرية معرفية إسلامية

هل تنسخ السنة القرآن؟؟

تباينت إجابة الذين سألته من المهتمين . منهم من قال بالنفي واستنكر مجرد السؤال عن هذه البديهية !! أكثرهم لم يسبق له الاهتمام بالمسألة ولا التفكير فيها !! قليلون قالوا بجواز ذلك ، وأن الرجم نسخ للقرآن ، فإذا لم تكن السنة تنسخ القرآن فالبحث في القرآن مباشرة ، فما وجدناه بينا كاملا فلا حاجة للبحث فيما سواه ، وإذا احتجنا إلى إضافة أو تفصيل فالبحث في مظانها ، أما إذا قلنا أن السنة قد تنسخ القرآن فيتعين :

- أ - إثبات ذلك بصورة قطعية .
 - ب - التحديد الدقيق لما تنسخه السنة .
- وعلى كل الأحوال ، فإن القرآن هو حجر الزاوية في البحث ، ورسولنا الكريم يشكو منا مر الشكوى :
- " وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا "
- الفرقان (٣٠)
- وفي سورة (محمد) أمر صريح للنبي ص " فأعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم " (١٩) .
- النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أنه لا إله إلا الله ، لكن قد يكون المقصود علما حاضرا فاعلا في كل شئون الحياة .

موجهات

- ١ . لا يختلف المسلمون في قطعية ومصداقية النصوص القرآنية والزاميتها .

٢. المنع البات للكذب بما يشبه خروج الكاذب عن مله الإسلام
 " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " التوبة
 (١١٩) .

٣. " وما يتبع أكثرهم الا ظنا أن الظن لا يغني من الحق شيئا ، إن
 الله عليم بما يفعلون " يونس (٣٥) . وهذا لا يحتاج إلى شرح
 ولا تعليق .

٤. " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " الاعراف
 (١٩٩) . الاعراض والانصراف عن الجاهلين وليس لهم في
 مسائل الفكر نصيب - حتى يتجاوزوا مقام الجهل غير الكريم .

٥. " قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ، ثم
 تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي
 عذاب شديد) (سبأ (٤٦) .

القيام : الجدية والحيوية والنشاط فليس الفكر والتفكر بالأمر
 الهين ولا من أعمال التبطل والدعة ، لكنه حركة قوية فاعله
 ومؤثره

لله : الاخلاص لله تعالى ونفى كل ما سواه ذلك من رغبات
 أو مصالح أو تقية

مثنى وفردى : بدأ بالحد الأقصى (مثنى) اثنين ، ثم نزل
 للواحدة وليس بعد الواحد إلا العدم ، للقطع الجازم عن احتمال
 أى زيادة ، ودليل حاسم على أن الجماعة - أكثر من اثنين -
 لا تفكر ولا تتفكر ، إنما عقل جماعي قطيع ومثله (اقتلوا
 المشركين ... وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ...)
 المشركين : جماعة ، قطيع لا يفكر . مشرك واحد إنسان مفرد
 يمكن أن يفكر .

ثم تتفكروا : بعد الاعداد وتوفير الاشتراطات اللازمة يمكن تشغيل الآلات والأجهزة الخاصة بالتفكير . بهذا فقط يمكن الوصول إلى نتائج عقلانية مسئولة . ويمكن القول أن الفكر والتفكر مسئولية فردية أو شبة فردية، وأنه من الممكن الاعتماد على القرآن الكريم كرافد أساسي في استنباط نظرية معرفة إسلامية متقدمة . ومع ذلك وعلى الرغم من كل الجهود المبذولة ، فإن الخلاف سيظل باقيا ، إذ أن الخلاف هو الأصل في هذه الحياة الدنيا .

الخلاف

الأنعام ١٦٤ (.. ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)
يونس ١٩ (وما كان الناس إلا أمة واحدة ، فاختلّفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما هم فيه يختلفون) .
هود ١١٨ ، ١١٩ (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملن جهنم من الجنة والناس أجمعين) .
النمل (ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) .
يونس ٩٣ (ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبادئ صدق ، ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) .
- من الآيات الكريمة عاليه ، يمكن القول أن الخلاف هو الأصل في الحياة ، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض .
- أشكال متباينة من الخلاف : تدرج من الكفر الغليظ إلى الخلافات داخل الدين الواحد والمذهب الواحد الفرع الواحد .

ومن الغرائب أن الخلاف كلما كان هامشيا كان أشد قسوة وأكثر مدعاة للتنافر.

- والخلاف ليس خيرا لاستثناء = من رحم ربك = .
- قد يفتح العلم المزيد من أبواب الخلاف .
- الخلاف مثله وآفات الحياة الأخرى : الأمراض والشبهوات : خلق الإنسان في كبد - خلق الإنسان من عجل - والتعامل معه - مثلها - كحقيقة واقعة السعي لعلاجها - الحد من آثارها السلبية - التعايش معها ...

مؤشرات عن العهد الإسلامي الأول

الرسول صلى الله عليه وسلم

رسولنا الكريم مثله والرسول من قبله ، مع نزول الوحي من ربه مباشرة وتلقيه التوجيهات والأحكام الخاصة به والعامة ، إلا أن في حياته مثل ما في حياتهم عظات وعبر ، وأحسب أن من أكبر العبر في حياة رسولنا صلى الله عليه وسلم : حادث الإفك . واستغفر الله من كل ذنب ، ماكنت لأصدق حادث الإفك لولا أنه جاء في القرآن الكريم ، ومثله ما فعله أخوة يوسف بأبيهم . إن هذه الأحداث ليست مثل المعجزات التي هي أصلا خرقا للنواميس والسنن الدارجة ، لكنها تصرفات إنسانية ، وليست من بشر تقليديين ولا في حق بشر عاديين . قد تكون هذه أمثلة على حياة الإنسان على الأرض ، وما فيها من ابتلاءات وتجاوزات وإنحرافات . وأهم شخصيات حادث الإفك : رسولنا الأمين صلى الله عليه وسلم ، وعائشة أحب زوجاته إليه ، وأبوها أبو بكر الصديق أقرب الرجال إلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، والذي إن وزن إيمانه بإيمان الأمة لرجح إيمانه ، وكبار الصحابة بما فيهم على ابن أبي طالب ... الخ

وكما ورد في القرآن الكريم إنه ليس شر بل هو خير " إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل أمرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم " النور (١١)

" لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين " النور (١٢)

وهكذا تتواصل الآيات في تبيان الأخطاء والتجاوزات والانحرافات، وأنه كان فيما نزل من القرآن عاصم من مثل هذه الزلات ، وكان لهم في تربيتهم وظنهم بأنفسهم وأخواتهم الخير وأقيا من الاتهامات البطالة، لكنهم ما التزموا ، انفجروا واندفعوا واخلدوا إلى طبيعتهم البشرية فظلموا أقرب أقاربهم واحب الناس إليهم .
والجدير بالبحث :

- الرسول المنفذ

- الرسول المشرع

أبو بكر الصديق

مواقف أبو بكر حتى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ورده على عمر عندما انكر عمر وفاته صلى الله عليه وسلم .

الخلافت وتعيين أبا بكر

توزيع الثروة في عهد أبي بكر

عندما سأله عمر عن كيفية توزيع الأعطيات ، أجاب أنه سيوزعها بالتساوي على المسلمين .

احتج عمر وقال أن من المسلمين أهل بيت النبي (ص) ، المهاجرين ، الأنصار ، البدرين الطلقاء ... الخ . قال أبو بكر أنه يعلم ذلك ، لكن ثوابه عند الله تعالى ، أما هو فيقسم أسباب المعاش والناس في ذلك سواء .

وأبو بكر أسبق إيماناً ، وأكثر صحبة والتصاقاً بالنبي وإدراكاً لمبادئ وروح وأهداف الدين الجديد .

عمر بن الخطاب

تعيين عمر

يبدو أن الخليفة العادل سكت لابي بكر من غير اقتناع ، إذ سوعان ما نفذ سياسته وأقام العدل حسب قناعته . صنف المسلمين حسب افضليتهم ، تحديد الأنصبه وفقاً لذلك . والمؤكد أنه نفذ ذلك بمبدأه العدلى الشهير . وتجدر الإشارة إلى قصة جبلة بن الأبهى وتشدد عمر معه وهو أحوج ما يكون له ، لكنه مفهوم العدل الصارم الذى لا يراعى سياسة ولا مصلحة دعى من الأثرة والإنحراف . لا ينفي ذلك إنه ألغى مبدأ المساواة فى التوزيع وسن سنة التفاوت والتباين فى توزيع الاعطيات . وينسب إلى عمر فى آخر عهده قوله : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء ورددتها على الفقراء . وإن صح ذلك فإنه قد يكون مؤشراً على ندمه فى مخالفة سياسة سلفه الحكيم ، وهذا يذكرنا أيضاً بما ينسب إلى الخليفة عمر : " الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم بسيفه " . لكن التقويم بالسيف كان من نصيب أحد أعضاء مجلس الشورى الذى عينه عمر ليختاروا أحدهم خليفة . ويفتح تكوين هذا المجلس باباً واسعاً لدراسة هذا الأسلوب : سلبياته ، وإيجابياته ، بدائله ، وأهم من ذلك مستقبله كمنهج لإختيار الحاكم وتقويمه وعزله إذا سارت الأمور على غير المسار الدموى العنيف المعروف .

الخليفة عثمان

وجد عثمان التفاوت فى توزيع الأعطيات سياسة عمرية نافذة ومقبولة . وينسب إلى عثمان القول :

إذا كان عمر يتقرب لله بحرمان أهله ، فإنني أتقرب لله بالأنفاق عليهم . وهذا أشبه به ، فقد كان عطوفا ، محبا للمسلمين عامة ولأهله خاصة .

ويمكن القول إنه بدأ من حيث ندم سلفه العادل . من الواضح أن السياسات المالية تخضع بالكامل لقناعات ومفاهيم الخليفة . حيث تطورات الفتته الواردة في كتب التاريخ التي أدت إلى مقتل الخليفة عثمان .

الخليفة على

أخيرا تم تعيين على خليفة في ظروف شديدة التعقيد . فشلت محاولاته الإصلاحية .

ثم مقتل على وتعيين ابنه الحسن خليفة للمسلمين منافسا لمعاوية الذي نصب نفسه خليفة .

قد يكون الحسن أصلح من يتولى المنصب فعلا ، لكن هذا لا يمنع أنها بداية النظام الوراثي ، وإن كان معاوية لا يحتاج إلى مثل هذه التبريرات .

فشل المسلمون في المحافظة على نظامهم السياسي التقدمي ، في ذلك الزمان ولو أنهم حافظوا عليه وطوروه لدفعوا المسيرة البشرية السياسية أكثر من ألف عام إلى الأمام بعد أن عجزوا ، وساروا سيرة الأمم المعاصرة لهم .

حكم الفرد الوراثي

والغريب كل الغرابة محافظة المسلمين على هذا النظام الذي ألجأهم له القتل والاحباط ، والتمسك به أن تجاوزته المسيرة البشرية . وقد يكون هذا مؤشرا على النجاح الباهر الذي حققه (تحوير وتهديم قواعد الفكر الموجود وإقامة فكر بديل يوفي بحاجات ومتطلبات نظام الحكم

الجديد ، وبما يجمع المعارضات الفكرية والسياسية ولضمان استمرار النظام فى المستقبل .

الرق فى الإسلام

مصادر وموارد الرق فى الإسلام

يبدو إن علماء المسلمين عندما لم يجدوا موارد للرق تنتاسب مع مايدعو له دينهم . قالوا باسترقاق أسرى الحرب حسب الواقع المعاصر والمعاملة بالمثل .

لكن أسرى الحرب لا يمكن إسترقاقهم بحكم ما جاء فى القرآن الكريم صراحة : " فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعدو وأما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله لن يضل أعمالهم " سورة محمد (٤) . فأسير الحرب يطلق سراحه بمقابل أو بدون مقابل .

وأحكام التعامل الواردة فى الإسلام عن الإرقاء خاصة بما هو موجود أصلا . والأحكام الإسلامية تتعامل مع واقع معاش لم يوجد ولا يؤيده الإسلام .! وبالفعل شرع الإسلام العتق ولم يشرع الرق . فى الآية ٢٤ من سورة النساء بعض الأحكام الخاصة بالإماء : (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت إيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض ، فأنكحوهن بإذن أهليهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات ، فإن أحصن فإن آتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، وذلك لمن خشى العنت منكم وإن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم " .

ومن الأحكام الواردة فى تلك الآية الكريمة :

المستطيع والقادر على زواج الحرائر زواجه من الاماء فى حكم الممنوع ، أما غير المستطيع زواج الحرائر فله أن يتزوج الاماء . ولكن إذا استطاع الصبر على عدم الزواج فهذا أفضل من زواج الاماء . وقد يبدو هذا موقفاً متشدداً ضد الاماء واندماجهم فى المجتمع ، ولكن الجانب الآخر والأبعد أثراً ما ينجم عن هذا الزواج من افساد لعلاقات اجتماعية قائمة ، ومصير نتاج هذا الزواج من الأبناء وكثير من السلبيات التى يمكن رصدها .

والمهتم بهذه المواضيع يفترض أن يعرف إن الاسئراقاى يؤدى بالضرورة إلى تشوهات غائرة فى نفوس وحياة وقيم وعلاقات وأخلاق وسلوك الأرقاء . باختصار الرقيق سلعة حقيقية للتداول ، والإسلام عمل على العلاج الجذري للمشكلة وتحديد منهج واضح للموجود من هذه السلعة فى السوق .

قد يكون التجاوز فى مسألة الرق فى الدولة الإسلامية - التى نت أكبر مركز عالمي للاتجار فى هذه السلعة فى ذلك الزمان - ر ضمن التنازلات التى صاحبت التنازلات السياسية بعد الحكم الر شد .. وغيرها كثير .

ما الحكم الثانى فى الآية الكريمة والخاص بالاماء ، أن على الأمة الزانية المتزوجة نصف ما على الحرة الزانية المتزوجة ، وهذا تأكيد على حقيقة التشوهات الناجمة عن داء الاسترقاء وأنه أصبح بمثابة نصف إنسان إن جاز التعبير .

والجانب الآخر من هذا الحكم يقودنا مباشرة إلى مسألة الرجم .

الرجم فى الإسلام

أولاً : كون نصيب الأمة الزانية المتزوجة نصف نصيب الحرة الزانية المتزوجة ، يخرج الرجم بالضرورة من حيز الأماكن إلى الاستحالة .

ثانيا : كما هو معلوم ، لم يرد نص قرآني في حكم الرجم ، بل ورد نص صريح شديد الدلالة والتركيز على عقوبة الجلد . في سورة النور الآية الأولى " سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون ، الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين " .

أن قوة الآيات - التي استهلكت بها سورة ذات اسم ذو دلالات ، في مناسبة ذات دلالات - تجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل تعرضها لنسخ أو تغيير .

ومناسبة السورة والأحكام الواردة هو حديث الإفك ، والإتهام موجه لأمتنا عائشة ، وهي بالطبع محصنة .. فيكون حكم الجلد المقترن بالمناسبة خاص بالمحصات حسب النزول ، وهذا أيضا ينفي إمكانية حكم الرجم !!

ونرجع للسؤال : هل تنسخ السنة القرآن ؟؟

تعدد الزوجات

النص القرآني الصريح على جواز التعدد وارد في بدايات سورة النساء " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا " (١) . " وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا ، وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا " (٣) .

وجاءت آيات أخرى عن النفي القاطع لامكانية العدل ، كما جاءت أخرى أيضا عن بعض التجاوز في ميزان العدل .

إنه لجدير بلفت النظر لهذه المقدمة التي هي في غاية الجمال والإبداع في الآية الأولى . وهذه الدعوة القوية للتعامل الإنساني الراقى المرتبط بتقوى الله والتذكير بخلق الذكر والأنثى من نفس واحدة مع التركيز على أولى الأرحام ، ثم الدخول في علاج الموضوع الرئيسي ، علاج مشاكل الأيتام ، وهم من النفس الواحدة وأولى أرحام . ومن بين وسائل وأساليب علاج المشكلة الأيتام : الزواج ، وهو قد يكون من أفضل العلاجات للأطفال ولأمهاتهم . ومع هذا المبرر القوي الداعي لتعدد الزوجات حتى الرابعة ، فإنه نص على المطالبة بالعدل كما نص على ما طاب لكم من النساء - ومع الشعور بما في هذه الزيجة أو الزوجات من تضحية إلا أنه توجد هذه الإشارة اللطيفة إلى الرغبة والتعامل مع هذه الزوجة كأنثى مستطابة .

قد يكون من الأفضل ذكر بعض الشيء عن ماهية العلاقة الزوجية والتي هي مكان التساؤل عن مشروعية التعدد فيها . وأيضا نجد أكمل وصف لها في القرآن الكريم .

سورة الروم " ومن آيته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون " (٢٠) . من أنفسكم أزواجا : الأصل في العلاقة الإنسانية العلاقة الزوجية من الابتداء - آدم وحواء كافرين أو نفسين ، واستمرار ذلك في ذريتهما ، وأن العلاقة عمودية . بمعنى أن الأصل علاقة الأزواج الحاليين مع أزواج سابقين - الوالدين - وأبنائهم ثمار الزواج الحالي تتجم عنهم زوجات لاحقة . ونذكر بنظام توزيع الموارد في الإسلام الذي يقوم على مبدأ توزيع التراكات على الأزواج والأصول والفروع - عمودي - ولا يتوارث الشقاء - أفقى - إلا في حالات خاصة . ولتسكنوا إليها : ماديا ومعنويا .

بملاحظة الواقع والتجارب العملية يمكن القول أن المودة والرحمة تكاد تنتفي تماما في حالة التعدد ، بالإضافة إلى التشوّهات التي يحدثها التعدد في العلاقات : الأبناء ، الأسر ... وهنا نشير إلى أحداها قد لا ينتبه إليها كثيرون :

تخوض الزوجة معركة مصيرية ضد خصومها الطبيعيين والتقليديين - الزوجات الأخريات وأبنائهم - للاستحواذ على أكبر قدر من المكاسب لها ولأبنائها ، والجنود المطيعون في هذه الحرب هم الأبناء . ومن يخلد الأم من أبنائها في هذه المعركة فهو الخائن المنبوذ ، وكل من ليس معنا فهو ضدنا ، ولا يغني عنه إخلاص الدهر كله ولن ترضى عنه الأم وكفى بذلك تشويها للأمومة .

مما تقدم يمكن القول أن الأصل في إباحة التعدد كما هو وارد في النص ، خاص بعلاج أوضاع الأيتام وما يمكن قياسه عليها من إشكالات .

نخلص إلى إن التعدد مثله وكثير من القضايا الهامة يحتاج إلى إعادة نظر .

العنصرية والتفرقة

تواترت الآيات عن كرامة ومساواة الإنسان بصرف النظر عن العرق والدين والجنس - ذكر أم أنثى (ولقد كرمنا بنى آدم ...) عام ومطلق .

" إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم " ويتضح في الآيات الوارد ذكرها عاليه أن الإسلام لا يقر التفرقة وإزدواجية المعايير والمفاهيم ضد بعض الاعراق وضد جنس النساء . وهذا يحتاج إلى عناية في البحث والنقضي ولا أحسبه مكان خلاف من ناحية دينية لكن السؤال :

كيف برزت هذه الأفكار والمفاهيم ونمت واستقرت فى وجدان المجتمعات الإسلامية ، حتى أصبحت جزءا من التراث الدينى لا تثير الاستنكار ولا الريبة ولا الفضول ؟؟
أهى جزء من التنازلات التى قدمتها السلطة ومنظروها وعلمائها كجزء من الثمن ، وحتى يجد الآخرون - كما وجدت السلطة - من يمارسون عليه رذائل البغي والعدوان والتسلط ، كما فعل الحكام معهم ؟؟

المال فى الإسلام

المال فى الإسلام كما هو معروف مال الله ، وأحكام الزكاة والصدقات معلومة ، لكننا نشير إلى :

ما جاء فى سورة الفجر " وتحبون المال حبا جما " (٢٠) .
فى هذه الحالة المال مثله والشهوات ونوازع الشر والسلبيات التى جبل عليها الإنسان ، وهو مطالب بالتحكم فيها والسيطرة عليها وترويضها ... الخ .

سورة الحشر " ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله ورسوله ولذئ القرى واليتامى والمسكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " (٧) .
نشير هنا إلى (كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) التى هى علة التقسيم المفصل فى الآية . وهذا حكم قاطع وملزم فى الأموال الخاصة ، أن لا تكون دولة بين الأغنياء وكل ما يؤدى إلى هذا الوضع المرفوض فهو مرفض أيضا . (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) هل هذه إشارة إلى التدرج الاختياري لمن يشاء ويستطيع تقليد النبى صلى الله عليه وسلم فى ذات نفسه - ما بات فى بيته درهم ولا دينار - (والآخرة أكثر تفضيلا) . وكان المال ومازال من أهم أسلحة وتسهيلات الظلمة من الحكام .

حكم المرتد

التاريخ الإسلامي يشهد باستغلال هذا السيف البتار في قطع رقاب كثير من المفكرين والمعارضين وإرهاب الآخرين ، لكن نجد في القرآن ما يلقي بظلال كثيفة على الحكم بقتل المرتد .

التوبة " يحلفون بالله ما قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله وسوله من فضله ، فإن يتوبوا بك فهو خيرا لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا إليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير " (٧٤)

" الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا " .

تكرار الكفر والإيمان يدل على تكرار الردة ، وهم بالطبع إحياء .

نظام الحكم في الدولة الإسلامية

إن الدعوى لتطبيق حكم إسلامي مبهم لم ولن نجني منها إلا المرب . من التخلف والاستغلال والجهالات . نريد بالتحديد والتفصيل مفاهيم صاحب الدعوة للحكم الإسلامي : ماذا يريد أن يعمل ؟؟ وكيف ؟؟

يفترض في نظام الحكم في الدولة الإسلامية تحقيق المفاهيم الإسلامية الأساسية مثل :

١. حمل المسؤولية .
 ٢. رفض السيطرة .
 ٣. كرامة الإنسان .
 ٤. العدل .
 ٥. الشورى .
 ٦. حتمية وجود الخلاف .
- قد يكون النظام اليمقراطي الذي يوفر الحرية ، التداول السلمي للسلطة ، الأحزاب والتنظيمات والتجمعات السياسية .. أكثر الصيغ المتوفرة قابلية لتحقيق المفاهيم الإسلامية ونظام الحكم الإسلامي .

- من الممكن قيام أحزاب سياسية مختلفة ، فقد وجدنا أن الخلاف آفة دائمة في كل من المستويات . كما وجدنا الاختلافات الكبيرة بين السياسات - خاصة المالية - لكل من الراشدين : أبو بكر وعمر وعثمان .
- إمكانية التحوال السلمي المنظم للسلطة أفضل من الثورات والإغتيالات .
- من حق المجتمع رفض الحكم الإسلامي بالوسائل الديمقراطية - الأغلبية - ومن يرى غير ذلك فبأى صيغة أو كيفية يريد فرض إرادته وسيطرته - ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى منع رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم من السيطرة والإكراه . " لست عليهم بمسيطر " العاشية (٢٢) .
- " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " يونس (٩٩) .

الدعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية

- كثيرا ما يفهم من هذه الدعوة إرتباطها بقانون عقوبات إسلامي ، وبعض الممنوعات .
- إذا أحصينا الآيات الخاصة بذلك فلن تزيد على صفحة أو ورقة واحدة من الحجم المتوسط . فماذا صنعنا بباقي كلام الله ؟؟
- قد يكون نسبة من يطالهم قانون العقوبات من المجتمع بنفس النسبة السابقة - الآيات للقرآن .
- ماذا عملنا لباقي المجتمع ؟
- إن الذي يطول المجتمع وينتفع بكل القرآن ، ويؤدي بالضرورة إلى انخفاض نسبة من يطولهم القانون وهي :

- # القضايا السياسية .
- # القضايا الاقتصادية .
- # القضايا الاجتماعية .

" وما فرطنا في الكتاب من شيء "

صدق الله العظيم .

خاتمة

القدسية التي يتمتع بها منهج أو فكر أو نص تكسبه خصائص وفعاليات وموجهات بعيدة الأثر في كل مناحي حياة الجماعة المعنية سلبا و (أو) إيجابا ، ومن أهم هذه الآثار خطورة التعامل مع - المقدس - نفسه .

بعيدا عن الإلزام الديني والعقائدي ، يمكن القول من الناحية الفكرية المجردة أن الدين الإسلامي يوفر المنهج أو النظرية لنظام سياسي واقتصادي واجتماعي يتصدر مسيرة التقدم الإنساني ، وبنفس القدر تشكل قدسية أو هام الجاهلين العقبة الكأداء التي تتحطم حياها كل الجهود الإصلاحية .

بعد صياغة الفرد ، مكان التكليف ، المطالب بالتفكر الاجتماعي بطبعه وتكليفه ، لم يؤمر بالشورى فقط ، إنما هي من خصائصه ومكوناته ، عليه ممارستها في كل مستويات الجماعة : الأسرة ، المجتمع ، الدولة .. مع التأكيد على مبادئ الحرية والمساواة المنصوص عليها ، ابتداء من " من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " حتى النهي القاطع عن السيطرة ، التسلط ، الإكراه ... ، مع التذكار المتكرر بحتمية الخلافات .

على أساس معرفية يقينية يكون السعي لتغيير أساليب التعامل في المجتمع بما يكفل تطوره وتطور المنهج الدائم ، مما يفي بمراكز توازن متجددة ومتطورة .

" واتبعوا أحسن ما نزل إليكم من ربكم "

صدق الله العظيم

فهرس المحتويات

٥	مقدمة
٧	الباب الأول : شرقستان وغربستان
٨	تأسيس
٩	السعادة والجهد الجاد المدرك والمنظم
١٠	١- العامل الصحى
١٠	٢- العامل الإقتصادى
١١	٣- العامل الإجتماعى
١٢	٤- العامل العقلى - الفكرى
١٣	الفصل الأول
١٣	القاهرة
١٤	صديق مصرى
١٩	الفصل الثانى
١٩	السياسة والتعليم الجامعى
١٩	السياسة والإرهاب
٢١	السودان جزيرة
٢٣	الفصل الثالث
٢٣	د. موريس بوكاي
٢٥	د. محمد مهدي
٢٦	د. أحمد الدرش
٣٠	الفصل الرابع
٣٠	الزملاء الفلسطينيين
٣٢	الزميلة فاطمة وزوجها
٣٤	الفصل الخامس
٣٤	الثورة فى الجامعة
٣٤	القذافى وجامعة قاريونس
٣٥	القذافى ووزير خارجية ألمانيا
٣٦	الصادق دهان

٣٨	الفصل السادس
٣٨	ثورة شعبية أم انتفاضة حرامية ؟
٣٩	الوحدة بالقوى
٤٠	إلغاء التجارة
٤٠	الديمقراطية
٤١	اغتيال القذافي
٤١	الاحتفال باغتيال السادات
٤٢	خالد الاسلامبولي
٤٤	الباب الثاني : الإنسان والكيد
٤٥	تأسيس
٤٧	الفصل الأول
٤٧	بيت الشباب
٤٩	مشكلة مياه الشرب في الخرطوم
٥٣	طلاق رجعي
٥٥	الرجوع من الشيوعية
٥٨	الفصل الثاني
٥٨	اتق شر من أحسنت إليه
٦٢	الفصل الثالث
٦٢	وثيقة حقوق الطفل
٦٣	أصدقاء الصغار
٦٥	عن مدارك
٦٦	الأخطار المحدقة بالطفل
٦٦	أ- التليفزيون وتأثيره
٦٨	ب- العنف ضد الأطفال
٦٩	ج- الاستغلال الجنسي للطفل
٧١	الباب الثالث : الفكرة وأحكام الردة
٧٢	تأسيس
٧٢	التوزيع الطبيعي للذكاء

٧٤	محمود وقضايا الشرق الأوسط
٧٥	بروفيسور الششكلي
٧٧	من طرق وأساليب محمود
٧٨	محاكم الردة
٨٠	الترابي ومقتل محمود
٨١	مقتل محمود وبنك فيصل الإسلامي
٨٤	رسالة الصلاة
٨٥	كيف تخرج بصلاة التقليد إلى صلاة الأصالة
٨٥	الصلاة بين المؤمن والمسلم
٨٦	متفرقات عن محمود
٨٩	محمود وابن طفيل
٩٣	الباب الرابع : في الدين والسياسة
٩٤	علوم المستقبل في القرآن
٩٥	العلاقة الإنسانية في القرآن الكريم
٩٧	الفصل الأول
٩٧	الترابي ومصالحة
٩٨	بنك فيصل الإسلامي
١٠٠	صلاح المصباح
١٠١	صحيفة المعارضات العربية
١٠١	لحم الخنزير
١٠٢	الجنة بلا عمل
١٠٣	مسلمتان يابانيتين
١٠٣	تناقض في كتاب مادة الدين
١٠٥	الفصل الثاني
١٠٥	العلوم الإسلامية بين الماضي والحاضر
١٠٥	في الماضي
١٠٦	الحاضر
١٠٧	الشجاعة الفكرية

١٠٩	الارتباط العكسي
١١٠	الفصل الثالث: نحو نظرية معرفية إسلامية
١١٠	هل تنسخ السنة القرآن؟؟
١١٠	موجهات
١١٢	الخلاف
١١٣	مؤشرات عن العهد الإسلامي الأول
١١٣	الرسول - صلى الله عليه وسلم -
١١٤	أبو بكر الصديق
١١٤	توزيع الثروة في عهد أبي بكر
١١٥	عمر بن الخطاب
١١٥	تعيين عمر
١١٥	الخلافة عثمان
١١٦	الخلافة علي
١١٦	حكم الفرد الوراثي
١١٧	الرق في الإسلام
١١٧	مصادر وموارد الرق في الإسلام
١١٨	الرجم في الإسلام
١١٩	تعدد الزوجات
١٢١	العنصرية والتفرقة
١٢٢	المال في الإسلام
١٢٣	حكم المرتد
١٢٣	نظام الحكم في الدولة الإسلامية
١٢٤	الدعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية
١٢٦	خاتمة
١٢٧	فهرس المحتويات

١- من رحى الحياة الدائرة وما بين قطبيها من
متباينات ومتناقضات..

من أقصى يمين السعادة المترفة حتى أقصى شمال
الشقاء والتعاسة..

من براثن الردى وقبضته الدامية الموحجة وما
يخلفه من حشرات وأسى وعظمت وعبر..

ولتجاوز حضيض الواقع المرير للحاق بمراكب
الطموحات الفارة..

هذا صوت خافت بالدعاء والثناء على المفكرين،
حدة الركب. وأن ليس لنا مخرج مما نحن فيه إلا
بعون الله وجهدهم، وأن لهم قيادة مسيرة المجتمع لما
فيه صلاحه..

وإذا كان جهاد النفس و الجهاد الأكبر عند فئات
المجتمع الأخرى، فإنه يضاف إليه جهاد الفكر عند
هذا النضر الذين اختصهم ربهم بقدرات ومواهب
لإنجاز مهام القيادة والريادة .. وهي مهام جد عسيرة
لقد عرض مؤلف هذا الكتاب ما جاء فيه من آراء
وأفكار يمكن ان توصف بالجرأة على بعض المهتمين
من شيوخ وأكاديميين:

قال د/ الحبر يوسف نور الدائم بأهمية العمل وبذل
الجهود لإكماله بإنجلترا، وتبينت لي مصداقيته، مثله
د/ حسن حسين - جامعة الجزيرة - الذي اقترح تكوين
لجنة مصغرة والعمل في سرية. اما د/ حسن مكي
فقال بنشره ومناقشته على نطاق واسع تحت إشراف
لجنة منه وأمين حسن عمر والمحبوب عبد السلام،
واعترض الأخير على النشر. سلم د/ أحمد علي امام
ملزمته المصورة لأحد كبار الشيوخ بجامعة القرآن
الكريم، سارع الشيخ برفضه .. لكنه تراجع بعد جدال
مرير..

ويبقى رأي القارئ الكريم الذي سيجد - ان شاء الله
- متعة في متابعة ما جاء فيه..

Bibliotheca Alexandrina



0351556

الناشر